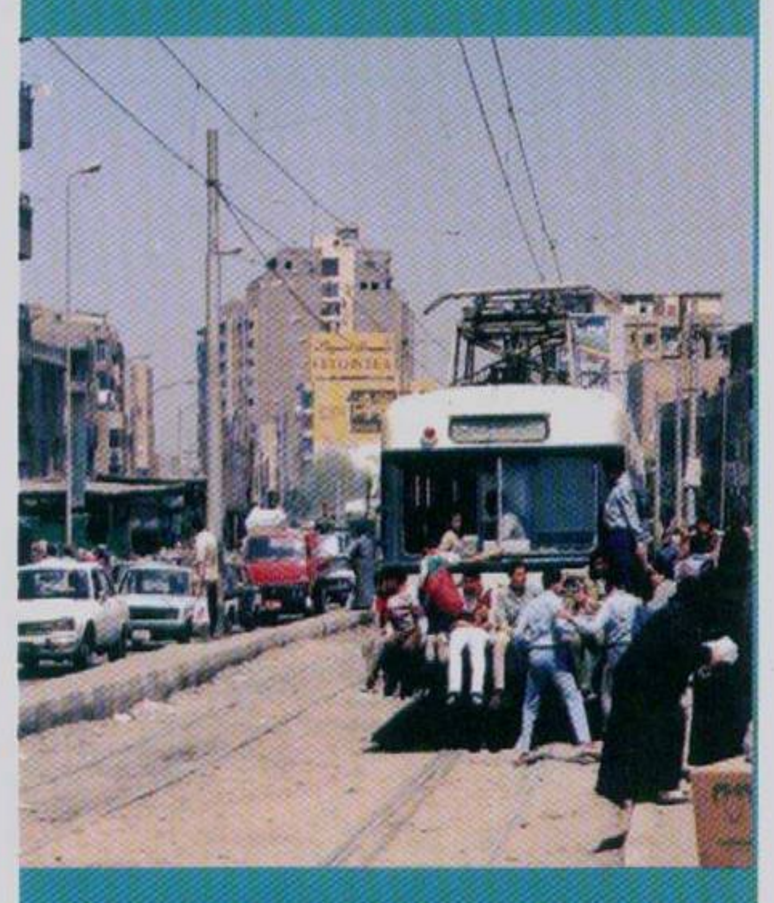








ترام القاهرة

ترام القاهرة

دراسة
تاريخية، اجتماعية، أدبية

محمد سيد كيلانى

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
ذاكرة الوطن

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• ترام القاهرة
• محمد سيد كيلانى
الطبعة الثانية
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
13,5 x 19,5 سم
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور
• رقم الإيداع: ٥٥٣٩/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-479-968-0
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

6

سلسلة تعنى بنشر كتب مختارة تعبر عن تاريخ مصر الثقافى والوجدانى

ترام القاهرة

مقدمة كتاب ترام القاهرة

بقلم: أسامة عفيفى

عندما بدأنا الإعداد لهذه السلسلة اتفقنا فى مجلس التحرير على أن تعنى بكل تجليات «الذاكرة الوطنية» التى تشمل الذاكرة السمعية والبصرية والأدبية والفكرية والمكانية والسياسية والاجتماعية.. وفتشنا جميعًا فى مكتباتنا عن الكتب التى اشتبكت مع هذه القضايا بعلمية ووطنية، فبدأنا بكتاب «المغنى المصرى» الذى رشحه الشاعر طارق هاشم مدير تحرير السلسلة وكتب مقدمته ليكون نموذجًا يملأ فراغ عقل «الذاكرة السمعية» وجاء كتاب المعلم يعقوب ليدحض الطائفية فى كفاح الشعب المصرى ضد الاحتلال الفرنسى، واعتقد أن كتاب «الفن الفرعونى» للرائد محمد صدقى الجباخنجى قد سد فراغًا كبيرًا فى مجال الذاكرة البصرية، وأيضًا التجربتان الشعريتان الفريدتان للشاعرين

عطية حسن ويسرى الخميس فالأول أبدع ديوانه فى أتون معركة أكتوبر ليقدم شهادة إبداعية فى أكبر انتصار للعرب فى التاريخ والثانى صنع بقصائده صورة بانورامية للواقع العربى منذ ما بعد اجتياح بيروت حتى غزو العراق، وعندما رشح لى الشاعر طارق هاشم كتاب «ترام القاهرة» للنشر - وكنت قد قرأته فى السبعينيات - احترت فى تصنيفه، فالكتاب واحد من «البحوث الاجتماعية» الهامة التى تدرس تحولات المجتمع المصرى أوائل القرن العشرين وتدرس بدقة تجليات «الحداثة المجتمعية» وأثر التكنولوجيا على بناء القيم الاجتماعية، ورغم كونه كذلك، ورغم أننا يمكن أن نصنف هذا الكتاب فى خانة «الذاكرة الاجتماعية» إلا أن ثراء مادته فتح أفق الرؤية ليصبح هذا الكتاب «متعدى النوعية» على حد تعبير عمنا إدوار الخراط.. فالكتاب يتعرض للشعر والأدب والفنون والجغرافيا والتاريخ السياسى والوطنى بل يتعرض للحوادث والجرائم والنكات والرياضة.. إنه يدرس بدقة تأثير دخول الترام كوسيلة تكنولوجية حديثة على مختلف صنوف المعرفة والإبداع والحياة ولقد صاغه مولفه بقلم رشيق بعيداً عن «كهنوت الأكاديمية» ومصطلحاتها ليدخل قلب القارئ بسرعة البرق، فما تكاد تقرأه حتى تقع فى غرامه من أول نظره، ولا تستطيع القيام من جلستك حتى تنتهى من صفحاته.. وهذا ليس غريباً على محمد سيد كيلانى فهو كاتب متعدد المواهب كتب فى الأدب والتاريخ والسياسة، كما كتب فى العديد من صحف الأربعينيات

والخمسينيات، ومن أشهر كتبه «الأدب القبطى تاريخه وأعلامه» و«شعر طه حسين» الذى يعتبر المحاولة الأولى لجمع أشعار طه حسين من الصحف ودراستها بالإضافة إلى كتابه السياسى التاريخى الهام «حسين كامل فترة مظلمة فى تاريخ مصر» ورغم أن محمد سيد كيلانى كان على خلاف شديد مع طه حسين، إلا أن كتابه عن «شعر العميد» يعد وثيقة هامة أفادت الباحثين الذين درسوا هذا الإنجاز الإبداعى لطه حسين فيما بعد، فلقد نقب الرجل فى صحف بداية القرن ليستخرج أشعاره ويقدمها لنا ويسهل على الباحثين مهمة التنقيب والبحث، والغريب أن كثيراً من الباحثين الذين استفادوا من كتابه هذا لم يشيروا إليه «كمرجع» وكأنهم هم الذين نقبوا وجمعوا!! بل إن بعضهم نقل آراءه كما هى فى شعر طه حسين دون أى إشارة إلى كتابه!!

بعيداً عن ذلك كله يعد كتاب «ترام القاهرة» موسوعة اجتماعية فنية ثقافية سياسية صغيرة، تصف بطرافة وظرف وعلم، حياة المصريين بعد دخول (الترام) إلى القاهرة وترصد «بعلمية» المتغيرات القيمية التى مهدت للحداثة المجتمعية فى أهم عاصمة فى الوطن العربى.

وأخيراً ها هو كتاب «ترام القاهرة» لمحمد سيد كيلانى نضعه بين أيدى القراء والباحثين ليكون رافداً من روافد «ذاكرتنا الوطنية» فى زمن العولمة الذى يحاول محو «ذاكرة الشعوب» كخطوة أولى لمحو «هوياتها»...

ترام القاهرة
لمحة من تاريخ القاهرة الاجتماعى

بقلم: طارق هاشم

الكتب عناقيد البهجة حين يضن الزمان بها ، وهناك كتاب تألفه ويصير فى الأهل ظلهم حين تقسو الشمس ، ولا يمكننى أن أنسى سعادتى وشغفى وأنا أقرأ كتاب صغير اسمه (فى ربوع الأزبكية) للكاتب (محمد سيد كيلانى) لقد استطاع (كيلانى) أن يجرح القاهرة القديمة بضواحيها وشوارعها المؤرقة ، ذلك نفسه استطاع أن يحققه فى كتابه البديع (ترام القاهرة) والذى يسعدنى أن أقدمه اليوم إلى قراء سلسلة (ذاكرة الوطن) لأسباب كثيرة وقع اختيار هيئة التحرير على هذا الكتاب ، أولا أهميته كمرجعية تاريخية دالة على فترة (ما) من حيث تحولاتها (اجتماعيًا - ثقافيًا - سياسيًا) .

إضافة إلى اعتبارات أخرى من بينها طرافة الموضوع الذى طرحه الكتاب ، والذى أثبت (كيلانى) من خلاله أن التاريخ ليس مجرد

أبنية وحجارة، أو بشر يتفق أو يختلف عليهم، بل أوجد تاريخًا للحافلات، فالقطار أو «الترام» يمكن أن يؤرخ لفترة (ما) كما يرسم حدودها دون أن يرهقنا كآدميين فى بدعة التصنيف والتقييم، أو يجبرنا على أن نرفع قبعاتنا المجروحة بفعل انشطار قلق، ولا يفوتنى أن أشير إلى ملمح آخر خاص بالكتاب وصاحبه، وهو تلك اللغة الساحرة التى قدمها (كيلانى) عبر مائة وثلاثة وأربعون صفحة، إن أهم ما يميز هذه اللغة خلوها من الصيغ المفتعلة والجمل البراقة التى تحمل فى ظلها كذبًا، بل كان بسيطًا كبساطة محب اختار أن يلقى الصباح على محبوبته عبر نافذة صغيرة لبيت قديم، افتتح (كيلانى) كتابه بإهداء عبارة عن قصيدة شعرية إلى الدكتور (ثروت عكاشة) وزير الثقافة آنذاك، مادحًا إياه، ثم تلى الإهداء مقدمة من صفحتين مؤرخًا من خلالها لليوم الذى شق فيه (الترام) شوارع القاهرة، ويقصد به اليوم الثانى عشر من أغسطس من العام ١٨٩٦ وكيف كان هذا اليوم حدًا فاصلا فى تاريخ المجتمع القاهرى، لقد انتقل المجتمع من طور البداوة والتأخر الذى يتمثل فى استخدام الخيل والحمير كوسيلة للانتقال على حد تعبير الكاتب إلى طور الحضارة والمدنية الذى يتمثل فى استخدام القوة الكهربائية، كما ألمح الكاتب إلى المعاناة التى كان يلاقيها سواد الشعب فى الانتقال من مكان إلى مكان، وذلك بفعل استبداد أصحاب الحمير والعربات مما كانوا يوجهونه من إهانات إلى المواطنين، وقد نعتبرها إشارة إلى أن نشأة الترام قد ردت للمواطن جزءًا كبيرًا من كرامته، ولم يكن

الترام مجرد حافلة أو ناقلة بشر وفقط، بل كان أيضًا شاهدًا على عصر بأكمله من المتغيرات والنقاشات الحادة، كما كان باعثًا إلى ثورات عديدة في حياة مدينة القاهرة، تلك المدينة التي علق حبها بقلب كل مسافر، فمتى ذهب عاد إليها بشوق كالجبال، كما ساعد وجود الترام على إزدهار حركة العمران وتنشيط الحركة التجارية، ولعب دورًا هامًا فى الحركة العمالية كما أشار (كيلانى).

يمر الكاتب بكاميرا خاصة وبسيطة فى ذات الوقت على حياة (القاهرة) قبل نشأة الترام، ثم يقفز إلى تصوير المجتمع القاهرى فى عصر الترام، ولم يترك (كيلانى) شاردة أو واردة، لقد كان دقيقًا إلى درجة جعلتنى أتذكر الشطر الشعرى الذى كتبه (بول ڤاليرى) (يا ناثانيل أوصيك بالدقة.. لا بالوضوح) والذى تصدر رواية عمنا (إبراهيم أصلان) (مالك الحزين) تلك الرواية الفاتنة، لقد مسح (كيلانى) الحياة الترامية مسحًا هائلاً وشاملاً، فلم ينسْ علاقة الترام بالحركة التجارية، أو كيف ساعد الترام على تكوين الرأى العام، كما أشار إلى تأثير الترام على الحركات (الثقافية - الفكرية - الوطنية - الفنية) حتى الحركة الرياضية لم يهملها (كيلانى) فى كتابه الآسر، لقد نجح (الترام) فى خلق ما يعرف بالحالة الترامية، فأصبح هناك ما يعرف بالأدب الترامى، شباب العصر الترامى، كذلك علّق الكاتب على علاقة الترام بالأدب الشعبى، إضافة إلى رصده للنكت والملح الترامية بحسب وصفه، ويختتم (كيلانى) كتابه بفصل قصير بعنوان (الأدب الشعبى فى ظل البيئة الترامية)،

ليؤكد لنا أن (الترام) لم يكن مجرد آلة ميكانيكية تعبر شوارع القاهرة، بل كان روحًا طائرة تحمل فى طياتها أسرار عصر بكامل تحولاته، لقد أوجد (الترام) حراكًا ثقافيًا واسعًا - أعنى كان دافعًا له - واليوم نضيف إلى مكتبتنا طبعة جديدة من كتاب (ترام القاهرة) والذى صدر قبل ذلك عن دار (الفرجانى) فى العام ١٩٦٨ ليكون أحد عناقيد البهجة التى افتقدناها، فإلى هذه الجنة المفقودة نعبر، فثمة ضوء فى انتظارنا.

ترام القاهرة

دراسة

تاريخية، اجتماعية، أدبية

تأليف

محمد سيد كيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

دار الفرجاني

القاهرة . طرابلس . لندن

صورة من غلاف الطبعة الأولى للكتاب

إهداء الكتاب

إلى الدكتور ثروت عكاشة

وزير الثقافة

يا ثروتَ بنَ عكاشةٍ هذا أنا   أسعى إليك وفى يدىَّ كتابُ

فاقرأْ على اسم الله أنت فصولهَ   فلَخيرُ ماجادت بها الألباب

من واقع التاريخ قد أُلهِمتُها   فجرى اليراع بها وقرّ جناب

هذى الحقائق أنت فى محرابها   نعم الوزير وحبذا المحراب

ياخير من عشق الثقافة يافعا   وأتى الثقافة مصلحا ينساب

ما أنت إلا "البدر فى كبد السما   لايَحْجبَنّك عن مُناىَ سحاب

ما زاد عنى البحترىُّ ولا ادّعَى   سَبْقا عليك الحارثُ الوهّاب

قد كان يعطى النوق فى أرسانها   ولأنت تعطى العلم وهو رضاب

العلم والعرفان قصر شامخ   فى هذه الدنيا وأنت الباب

فاقبلْ وجُدْ وامنح وصِلْ   لله درك أنت عُباب

القاهرة فى ٢٠ مايو سنة ١٩٦٨

محمد سيد كيلانى

مقدمة

يعتبر يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٦ ، وهو اليوم الذى سارت فيه قطارات الترام تشق شوارع العاصمة ، حدا فاصلا فى تاريخ المجتمع القاهرى ، إذ انتقل فيه من طور البداوة والتأخر الذى يتمثل فى استخدام الحمير والخيل وسيلة للانتقال ، إلى طور الحضارة والمدنية الذى يتمثل فى استخدام القوة الكهربائية.

لقد كان سواد الشعب فى القاهرة يعانى مشقات هائلة فى الانتقال من مكان إلى آخر ، من جراء استبداد أصحاب الحمير والعربات ، وتحكمهم فى الناس ، ومايوجهونه للجمهور من ألفاظ سافلة ، وعبارات نابية ، حتى أصبحت كلمة حَمَّار ، أو حوذى « عربجى » تعنى سوء الأدب ، وانحطاط الأخلاق ، بل وكل صفة قبيحة .

وكانت معظم الشوارع على الفطرة ، كما وجدت منذ مئات السنين، لم تمتد إليها يد الإصلاح ، يسودها الظلام ليلا ، ماعدا الرئيسية منها فإنها كانت تضاء بغاز الاستصباح . لذلك لم يكن انتقال الإنسان بالأمر السهل ، بل كان عملا شاقا . وإذا حدث فإنه يتم نهارا ، ولأمر هام . فعاش سكان كل حى فى عزلة تكاد تكون تامة عن بقيه الأحياء الأخرى .

فلما أنشىء الترام ، حدثت ثورة هائلة فى جميع نواحى الحياة القاهرية . فطاب السهر ، وأصبح فى متناول الجماهير وبخاصة الشبان الذين كانوا يقضون الليل فى الملاهى والمراقص . وبدأت الروابط الأسرية فى التفكك ، وضعفت رقابة الآباء على الأبناء . كما ساعد وجود الترام على اتساع حركة العمران ونشطت الحركة التجارية ، ونشأت المحلات الكبرى لتجارة التجزئة فى ميدان

العتبة الخضراء ، والجهات المجاورة له . وظهرت قيمة الإعلانات التجارية .

ولما سهل على الناس الانتقال عظم امتزاجهم ، واشتد اختلاطهم ، ومن ثم بدأ الرأى العام يتكون ويصبح خطرا على الجهات الحاكمة . وكثرت الجمعيات الخيرية التى اجتهدت فى فتح المدارس . كما كثرت الأندية الثقافية والصحف والمجلات . وأخذت الحركة الفكرية تنمو نموا مطردا .

وقد لعب وجود الترام دورا هاما فى الحركة العمالية ، كما ترى ذلك واضحا فيما جاء تحت عنوان « الترام والحركة العمالية » وترتب على هذا كله اتساع دائرة الحركة الوطنية .

ولما طاب السهرة كثرت المسارح وصالات الرقص والغناء . فحدثت نهضة فنية . كما كثر إنشاء الأندية الرياضية لمختلف الألعاب وتشكلت فرق وطنية وأجنبية .

وكان من الطبيعى أن ينعكس هذا كله على الأدب ، فظهر الأدب الترامى فى الفترة من سنة ١٨٩٦ — ١٩١٤ ، إذ بقيام الحرب العالمية الأولى جدت ظروف ، ووقعت أحداث جسام غيرت بعض نواحى الحياة .

وحينما ظهر الترام ، وجد الأدباء أشياء غريبة فى المجتمع لم تكن معروفة من قبل ، فتناولوها شعرا ونثرا . وبمرور الزمن أصبح الكثير منها أمرا مألوفا ، لا يستوقف النظر ، فانصرف الأدباء عنه إلى أشياء أخرى ولدتها ظروف الحرب . واختفت الصحف والمجلات التى كانت تملأ أعمدتها بالأدب الترامى . ومابقى منها قل حجمه وضاقت مساحته . ثم كانت ثورة سنة ١٩١٩ ومابعدها .

ولم أتوسع فى دراسة الأدب الترامى ، لأن التوسع فى دراسته يحتاج إلى مجلد ضخم ، فاكتفيت بعرض موجز ؟

القاهرة فى ٢٠ مايو سنة ١٩٦٨ !

محمد سيد كيلانى

القاهرة قبيل عصر الترام

١٨٩٢ — ١٨٩٦

كان مسطح[١] معمور المدينة يبلغ ٣٨٨٠ فدانا ، وطول شوارعها ٣٥٣ك . م ، ٣٤٠ مترا . وعدد سكانها ٣٧٤,٨٣٨ نفساً ، منهم ٣١,٦٥٠ من الأجانب . وكان قسم المدينة الأكثر سكاناً يشغل ١٤٤٥ نفساً للفدان الواحد ، من المساحة المتقدم ذكرها . وفى أقله ٢٩٨ نفسا فقط .

وكان بالمدينة ٥٥,٥٩٧ بيتاً ، ٣٧٩ جامعا . ولم تكن شركة المياه تمد من المنازل والجوامع سوى ٤,٣٩٧ بيتاً ، وعشرة جوامع . و بقية البيوت والمساجد تستمد مياهها من الآبار ، وبعضها من صهاريج تملأ فى أثناء الفيضان ، وبعضها من السقائين منقولة من النيل مباشرة .

وفى سنة ١٨٩٢ تقرر تأليف لجنة للنظر فى وضع مشروع مجارى القاهرة — المصارف الصحية — من ثلاثة مهندسين : أحدهم فرنسى ، والثانى ألمانى ، والثالث انجليزى . فكتبت تقريراً[٢] جاء فيه :

« إن مياه الأقذار فى القاهرة تجتمع الآن — لعدم المصارف فيها — فى خزانات مقامة تحت المنازل ، فينصرف قسم منها فى الأرض ، وينزح القسم الآخر كلما اقتضت الحال ذلك . وطريقة النزح كانت أبسط الطرق حينئذ ، ولكن لما تألفت[٣] شركة نزح المواد البرازية ، صارت تنزح تلك الخزانات

(١ ، ٢) المقطم فى ٨ ـ ٤ ـ ١٨٩٢ .

(٣) تأسست هذه الشركة سنة ١٨٨٧ ، وكان مركز إدارتها بشارع عبد العزيز ، وكانت تقوم إلى جانب عملها الأصلى بصنع السماد من المواد العضوية وبيعه للمزارعين

بطلمبات بخارية ، تمتص المواد البرازية منها وتلقيها فى عربات حوضية مسدودة سداً محكما ، وتنقل تلك الخزانات إلى خارج المدينة » .

« هذا ، وقد عاينت اللجنة الخليج المصرى بكل تدقيق ، من مبتدئه إلى منتهاه ، والمنازل جميعها ، من منازل الأغنياء إلى منازل الفقراء ، والجوامع والحمامات العمومية ، وقالت عن ذلك :

« إن المحلات الحقيرة المعروفة بالعشش هى أشد مايمكن لذهن أن يتصوره من الأماكن المضرة بالصحة » .

« وقد شاهدت اللجنة بيوتاً يملكها وطنيون متوسطو الحال ، يشتمل البيت الواحد منها على طابقين ومقدمة — واجهة — مزينة أحجاره بالنقوش المحفورة . فقالت عنها من حيث الحالة الصحية ما يأتى : إن هذه البيوت هى من حيث النظافة والتدابير الصحية فى حال يرثى لها ، ويصعب أن يتصور الذهن أسوأ منها » .

« وقد شاهدت فى بيوت الموسرين أيضا أن المرتفق والمطبخ متحاذيان ، أحدهما بإزاء الآخر . وكلاهما فى الغالب قائم فى منتصف المنزل . ثم إن اللجنة قد عاينت مرتفقات جامع السيدة زينب ، والجامع الأزهر خصوصاً ، فوجدتها محلا للانتقاد ، لعدم مناسبتها » .

« وقد رأت أن الأربعة مرتفقات العمومية المقامة فى جنينة الأزبكية يدخلها فى اليوم الواحد تسعة آلاف نفس لقضاء حاجاتهم . وقالت إن مايتخلل أرض المدينة من المواد البرازية من هذه المرتفقات يبلغ مائة وواحدا وأربعين ألفاً من الأمتار المكعبة فى السنة الواحدة ، فتشحن الأرض قذارة ، وتفسد مياه الآبار التى يستقى منها العدد العديد من الأهالى » .

« هذا ، وإن حالا ـ مثل هذه ـ خلوا من التدابير الصحية ، تستلزم بالبديهة كثرة عدد الوفيات . فإن اللجنة قد وجدت متوسط تلك الوفيات فى القاهرة ٤٦,١٠ فى الألف من السكان فى السنة . وقد قابلت الوفيات المذكورة بوفيات ثلاث وثلاثين مدينة كبرى من مدن أوربا وأمريكا والهند ، فلم يكن منها مايتجاوز وفياتها أربعين فى الألف إلا مدينة مدراس فقط ، فإن الوفيات فيها ٤٨ فى الألف » .

« وأما وفيات المدن العظمى فى أوربا ، ففى لندن ١٧,٤ فى الألف . وفى باريس ٢٣,٥ فى الألف ، وفى برلين ٢٣,٧ فى الألف ، وفى مرسيليا ٢٩,٧ فى الألف . فمن ذا يرى أن متوسط وفيات القاهرة يكاد يكون أكثر من وفيات أية مدينة أخرى ، مع أن الطبيعة قد خصتها بإقليم يقرب أن يكون عديم المثل والنظير فى الجودة » .

ومع أن هذا التقرير أعطى صورة قبيحة للعاصمة ، إلا أن مجلس شورى القوانين رفض[١] أن يوافق على الاعتماد الذى طلبته الحكومة فى ميزانية سنة ١٨٩٤ كدفعة أولى لتنفيذ المشروع ، وقدره أربعون ألف جنيه . ورأى وجوب استخدام هذا المبلغ فى تخفيف الضرائب عن الفلاحين . وبذلك ظلت العاصمة محرومة من المصارف الصحية مدة طويلة .

وفى أكتوبر سنة ١٩٠٦[٢] استقدمت الحكومة مستر كركيت جيمس ، المهندس الذى تولى إنشاء مجارى بومباى وغيرها من مدن الهند ، فدرس المشروع من جديد وعين مراقبا لمصلحة المجارى . وقد بدىء فى تنفيذ

(١) المقطم فى ٢٠ — ١٢ — ١٨٩٤ .
(٢) المقطم فى ٢٤ — ١ — ١٩١٤ .

المشروع سنة ١٩٠٩ ، وانتهى منه فى يناير سنة ١٩١٤ ، وتكلف نحو مليونى جنيه .

* * *

وكانت العاصمة[1] تعج بالعشش الحقيرة التى تساعد على نشر الأمراض والأوبئة . مثل عشش البقلى وعشش أخرى غيرها فى حى الخليفة وشلبى بالرفاعى . وعشش الأوقاف والمشايخ ، وقد شغلت حى الدوبارة . وعشش الحدادين بالسيوف ، وأخرى بباب الشعرية وحوش الحلوانى بالعمرى . وعشش على جانبى الترعة البولاقية من مبتداها إلى منتهاها . وعشش الشيخ على ببولاق . هذا غير الأرض الخراب المنتشرة فى جميع الأنحاء .

وكان يخترق المدينة : الخليج المصرى ، والترعة الإسماعيلية ، والترعة البولاقية . وحينما انتشر وباء الكوليرا سنة ١٨٩٦ ، تألفت لجنة لدراسة أسباب انتشاره ، فوضعت تقريرا[2] جاء فيه :

« . . . وغنى عن البيان أن وجود هذه الترع فى مدينة كثيرة الأقذار ، قليلة التدابير الصحية ، خالية من المصارف ؛ لا يخلو من الأخطار والمضار فى كل آن ، وخصوصا فى أوان الوباء . ولما كانت مراحيض المنازل العديدة تنصب فى الخليج ، والقاذورات تلقى فيه من كل ناحية ، والناس يغتسلون ويتوضئون فيه فيلوثونه بمكروب الوباء فى جهة ، ليشربوا فى جهة أخرى بجانبها ، كثرت الإصابات فى الجهات المجاورة للخليج ، وكذا فى الجهات المجاورة للترعة

(١) المقطم فى ٥ ــ ٧ ــ ١٨٩٣ .
(٢) المقطم فى ٥ ــ ٩ ــ ١٨٩٦ .

الإسماعيلية . وأبلغ منهما الترعة البولاقية[1] ، لأنها ضيقة ، لا يكاد عرضها يزيد عن مترين . وقد أقيمت عليها أقذر العشش ، وكثر عليها أفقر الأهالى . وكلهم يغسلون ويستحمون ويستنجون فيها ، ويشربون منها . فلذلك اشتد الوباء بينهم ، وفتك فيهم فتكا ذريعا » . وقد استقر الرأى بصفة مؤقتة على تطهير الترع الثلاث ، ومنع الناس من الاستقاء منها .

---

(١) حفرت الترعة البولاقية فى عهد محمد على ، وكانت تخرج من مكان قرب ميدان التحرير ، يبعد قليلا عن منبع الترعة الإسماعيلية . ثم حول منبعها إلى مكان فى ناحية بولاق أبى العلا ، ومن ثم أطلق عليها اسم الترعة البولاقية . وكانت تسير خلف السكة الحديد إلى شبرا ، ومنها إلى غمرة فالأميرية وتصب فى الترعة الإسماعيلية . ولما تفشى وباء الكوليرا فى صيف سنة ١٩٠٢ ، أصدرت نظارة الداخلية قرارا هذا نصه : يمنع الاستقاء من ماء النيل من المواقع الكائنة بين ساحلى مصر القديمة وروض الفرج ، ثم من ماء الترعة الإسماعيلية ، من منبعها بقرب قصر النيل لغاية كوبرى غمرة . وأن يسد فم ترعة بولاق الذى يبتدىء من الترعة الإسماعيلية ، وفمها الذى يبتدىء من الترعة المخترقة لجزيرة بدران . وتردم الترعة أيضا لعدم تمكن الناس من أخذ مياه منها .

وفى أغسطس سنة ١٩٠٢ صدر أمر عال باعتبار الأعمال اللازمة لإقامة فم مستجد للترعة البولاقية من المنافع العمومية . ويبلغ طوله نحو ٧٥٠ مترا . ونص الأمر على أن تنزع ملكية الأراضى التى يستدعيها إجراء تلك الأعمال بالطريقة العادية ، وبحسب القواعد المتبعة ، وتبلغ مساحتها خمسة فدادين ، وعشرين قيراطا وستة عشر سهما ، ملك الأهالى ، واقعة فى ناحية منية السيرج بإقليم القليوبية ، بين جسر النيل الملاصق لسكة حديد شبرا ، وفم الترعة المقلوبة لحد ضفة النيل .

وبهذا أصبحت الترعة البولاقية تخرج من النيل فى جهة منية السيرج ، وتسير فى الشارع المعروف باسمها حاليا ، ثم تنحرف فى مكان قريب من شارع أحمد بدوى إلى غمرة فالأميرية حيث تصب فى الترعة الإسماعيلية وقبل أن يتم هذا التحويل أى حينما كانت تنبع من بولاق وتسير إلى شبرا ، كان يوجد كوبرى أقيم عليها فى مواجهة كوبرى السكة الحديد الحالى ، ولما أرادت شركة الترام أن تمد خطا من باب الحديد إلى شبرا فى فبراير سنة ١٩٠٢ ، اشترطت الحكومة أن تقوم الشركة بتوسيع كوبرى الترعة البولاقية وتقويته ، ولكن لما تغير منبع الترعة وردم ما امتد منها من بولاق إلى كوبرى السكة الحديد ، أصبحت الشركة بالطبع — فى حل من هذا الشرط (انظر المؤيد فى ٥ — ٢ ، ٧ — ٨ — ١٩٠٢ ، والوقائع فى ٦ — ٨ — ١٩٠٢ عدد ٨٦) .

وكانت ترعة الإسماعيلية تخرج من مكان قريب من ميدان التحرير ، وتسير مارة بباب الحديد إلى غمرة فالأميرية وكانت شواطىء الترعة عند باب الحديد تتخذ كراحيض « حتى[١] أصبحت قرارة أوضار ، تنبعث منها الروائح الكريهة إلى مسافات بعيدة . ولا يخفى أن هذا المكان هو أول ما يقبل عليه القادمون إلى العاصمة من محطتها ، فلا يصح أن يكون مكانا للقاذورات ، ومصدرا للروائح المضرة بالصحة العمومية » .

وكان شارع رمسيس الواقع من باب الحديد إلى العباسية أرضا زراعية ، لا تصلح لسير عربات الخيل . وكان الخديو حينما يغادر قصر عابدين إلى القبة أو بالعكس يسلك شارع نوبار « الجمهورية » فشارع الفجالة ، فشارع الظاهر ، إلى العباسية . فاقترحت صحيفة الأخبار (١ - ١٠ - ١٨٩٦) على شركة الترام أن « ترمم الطريق السائرة بجانب ترعة الإسماعيلية من كوبرى الليمون إلى سراى القبة العامرة ، وتغرس الأشجار على جوانبها فتصبح لائقة بموكب سمو الجناب العالى ، وتزيد مصر منتزها جديدا ، يتنعم به سكان العاصمة » وقد قامت الشركة فعلا بإصلاح هذا الطريق فى صيف سنة ١٩٠٤ .

* * *

أما شوارع القاهرة فكانت من حيث النظافة فى حالة يرثى لها . جاء فى تقرير كرومر[٢] عن سنة ١٩٠٠ ما نصه « يجب أن يعمل شىء كثير قبلما يقال إن شوارع العاصمة من حيث الكنس والرش ، والتبليط والتنوير صارت فى حالة مرضية . وتبلغ مساحة الشوارع فى القاهرة ٧٤٢ر٧٨٠ر٢ مترا مربعا .

---

(١) المقطم فى ٢٩ - ١٠ - ١٨٩٨ :

(٢) المقطم فى ٦ - ٥ - ١٩٠١ .

المرصوف منها بالحصى ١٣٦١٠٢٤ر١ مترا مربعا . وما بقى من شوارع غير مستوية وجدت منذ مئات السنين . والتجارب جارية فى الإسفلت المنضغط ، فإن نظارة الأشغال تنظر فى مشروع مآله رصف الشوارع المهمة به ، لأنه أبقى على الاستعمال من الحصى » .

« ومسألة كنس الشوارع[1] ؛ مسألة مالية من جهة ، وإدارية من جهة . فإن السكان يطرحون فضلات بيوتهم فى الشوارع يوميا . فلا يسهل تنظيف الشوارع مالم يمتنعوا عن ذلك . ويطرح من البيوت يوميا ما يزن ٩٠٠ طنا من الفضلات ، ترفع منها مصلحة الكنس والرش ٣٥٦ طنا كل يوم ، وخدمة الحمامات ٢٢٦ طنا ، وما بقى يترك فى الشوارع » .

فمن هذا التقرير نرى أن ما كان يترك من الفضلات فى الشوارع يوميا هو ٣١٨ طنا ، وربما كان أكثر . وللقارىء أن يتصور مدى ماتصبح عليه الشوارع من جراء تراكم الفضلات فى عدة أعوام .

فلم يكن ـ والحالة هذه ـ انتقال الإنسان من مكان إلى آخر بالأمر السهل . فالشوارع مملوءة بالحفر ، وأكوام الفضلات ، والأحجار . فكان الحمار هو وسيلة انتقال الناس ، وكان للحمير مواقف معينة ، يقصد إليها من يشاء ، منها موقف عند فندق شبرد القديم بشارع الجمهورية ، الغرض منه خدمة السياح

---

(١) ما زالت مشكلة نظافة الشوارع تشغل البال . ففى صحيفة الجمهورية (٣ـ ٢ ـ١٩٦٨) ما يأتى « تبلغ مساحة المسطحات المطلوب كنسها ٣٢ مليونا من الأمتار المربعة ؛ منها ٢٤ مليونا فى الأحياء الشعبية . أطنان الفضلات تبلغ فى اليوم الواحد ٤٠٠٠ مترا مكعبا . النقص فى الإمكانات يمكن استكماله ؛ أما الوعى بأهمية النظافة ؛ وضرورة المحافظة على الوجه النظيف للعاصمة فهو المشكلة . الشكوى من عدم النظافة سببها عدم الوعى النظافى » .

الأجانب . أما عربات الركوب التى تجرها الخيل فكانت للأغنياء ، وقليل منها للتأجير لمتوسطى الحال . والعربات العامة المعروفة بالأمنيبوس كانت تسير ببطء شديد ولمسافات قصيرة . ولم تظهر شركتا « سوارس » و « الصبان » إلا فى سنة ١٨٩٩ ، أى بعد إنشاء الترام بنحو ثلاثة أعوام . وفضلا عما تقدم فإن طاعون الخيل كان ينتشر بين سنة وأخرى ، فيفتك بعدد عظيم منها . وكان الانتقال يتم نهارا ، لأن العربات كانت خالية من المصابيح ، ولأن الإضاءة فى الشوارع كانت ضعيفة ، ويستخدم فيها غاز الاستصباح ، ولم تكن فى جميع الشوارع . فلذا كان سكان كل حى يعيشون بمعزل عن سكان الحى الآخر . فساكن العباسية مثلا لا يفكر فى الذهاب إلى مصر القديمة إلا لأمر هام ، وقلما يفعل ذلك . وكان التجار وأصحاب الحرف يتخذون محلاتهم فى الحارات التى يسكنونها أو قريبا منها . والتلميذ الذى لا يجد مدرسة فى حيه ينصرف — فى الغالب — عن الدراسة . وقد ظلت الحالة على ذلك حتى ظهر الترام ، فأحدث بظهوره ثورة هائلة فى حياة المجتمع القاهرى .

إنشاء الترام

فى أغسطس[1] سنة ١٨٩٣ أعلنت الحكومة عن رغبتها فى أن تقوم شركة بمد خطوط للترام فى العاصمة .

وفى نوفمبر[2] سنة ١٨٩٤ صادق مجلس النظار على منح امتياز بإنشاء سكة ترامواى تسير بالكهربائية فى العاصمة لشركة بلجيكية . وقد تقرر أن يكون الامتياز بثمانية خطوط ، تبدأ كلها من ميدان العتبة الخضراء . فالأول يتجه إلى القلعة ، والثانى إلى بولاق ، والثالث إلى باب اللوق فالناصرية ، والرابع إلى العباسية عن طريق الفجالة ، والخامس إلى مصر القديمة . والسادس من فم الخليج إلى الروضة ، ثم ينتقل الركاب بزورق بخارى إلى الشاطىء الآخر ليستقلوا قطارا إلى الجيزة ، وهذا هو الخط السابع . والثامن يبدأ من ميدان قصر النيل ، ويسير موازيا للترعة الإسماعيلية إلى قنطرة الليمون .

وفى أول أغسطس سنة ١٨٩٦ أجرت الشركة حفلة تجريبية لتسيير أول قطار كهربائى . ففى الساعة العاشرة من صباح اليوم المذكور ، ركب حسين فخرى باشا ناظر الأشغال إذ ذاك ، ومعه بعض كبار موظفى النظارة قطارا أقلهم من بولاق ، مارا بميدان العتبة إلى القلعة . وقد اصطف الناس على الجانبين ألوفا وعشرات الألوف ، ليشاهدوا أول مركبة سارت فى العاصمة بقوة الكهرباء ، والأولاد يركضون وراءها مئات وهم يصرخون : العفريت ، العفريت .

وكانت المركبة ـ كما ذكرت المقطم[3] « تسرع حتى تسابق الرياح متى

(١ ، ٢ ، ٣) المقطم فى ١٥ ـ ٨ ـ ١٨٩٣ ، ١٥ ـ ١١ ـ ١٨٩٤ ، ١ ـ ٨ ـ ١٨٩٦ .

خلت لها الطريق ، وتارة تسير رويدا ، رويدا ، أو تقف بغتة عند اعتراض الأولاد والسابلة فى طريقها . وقد وقف سائقها ، ووضع يده على ميزان تسييرها وإيقافها ، ويصل بينها وبين السلك فوقها عمود من الحديد لإتمام الدورة الكهربائية » .

وفى ١٢ من أغسطس المذكور جرى احتفال رسمى بتسيير قطارات الترام فأقامت الشركة زينة باهرة فى ميدان العتبة . قالت صحيفة المقطم (١٣ - ٨ - ١٨٩٦) :

« شهد أهل العاصمة أمس مشهدا قلما شهد مثله أهالى المشرق ، ولم يخطر على قلب بشر منذ مائة عام ، وهو أن تجرى مركبات كبيرة تقل المئات من الناس ، لا بقوة الخيل ، ولا بقوة البخار ، بل بالقوة الطبيعية التى تسبب البروق والرعود ، بقوة تتولد على شواطىء النيل ، من احتراق الفحم وإدارة الحديد أمام المغناطيس ، ثم تجرى على أسلاك منصوبة فى الهواء ، والقضبان ممدودة فى الأرض ، فتدير عجلات المركبات ، وتجرى على ما يراد من السرعة .

هذا هو الترامواى الكهربائى الذى احتفل أمس بتسييره فى العاصمة ، من بولاق إلى القلعة ، احتفالا باهرا . فما أزفت الساعة الرابعة من بعد الظهر حتى غصت ساحة العتبة الخضراء بالمدعوين من الأمراء والعظماء ، وكبار الموظفين والأعيان ، وفى مقدمتهم النظار ، ومحافظ العاصمة ، وقناصل الدول ، ورجال القضاء . وكان المسيو « لاهو » مدير شركة الترامواى يرحب بالوافدين . وكانت مركبات الترامواى واقفة صفوفا فى تلك الساعة ، ثم سارت تباعا إلى القلعة بين جماهير المتفرجين الذين انتشروا على جانبى الطريق ، وهم يهتفون سرورا . ثم عادت المركبات بمن فيها من القلعة إلى مقر الشركة فى بولاق .

وكان قد أقيم سرادق مدت فيه الموائد ، وقدمت المرطبات ، وكل ما لذ وطاب » .

وكانت أجرة الركوب ستة مليمات للدرجة الأولى ، وأربعة للثانية . وقد عينت الشركة أربعمائة عامل مصرى .

وفى سنة ١٨٩٧ ردمت الشركة الخليج المصرى ، ومدت خطا من السيدة زينب إلى غمرة . جاء فى تقرير كرومر[١] عن ذلك العام ما نصه : « أفضى مد الترامواى الكهربائى فى شوارع القاهرة إلى ردم الخليج ، وهو ترعة قديمة ، كانت تمر سابقا فى قسم من القاهرة ، وكان يحتفل بفتحها كل سنة عند ارتفاع النيل ، احتفالا يظن أن أصله يمتد إلى أيام فتوحات العرب الأولى . غير أن هذه الترعة أهملت منذ سنوات بسبب الإصلاحات التى تمت فى الرى ، فصار الاحتفال بفتح الخليج مجرد صورة فقط . ثم إن مصلحة الصحة ألحت على الحكومة مرارا فى وجوب ردم الخليج . ولما فشت الكوليرا سنة ١٨٩٦ لم يفتح وقتيا . وكان يظن أن الأهالى يستنكرون ردمه ، وإبطال الاحتفال به . فلذلك لم يشدد فى الأمر كما يقتضى . غير أنه ظهر على مر الأيام أن اهتمام الأهالى ببقائه مبالغ فيه . وعليه قر القرار فى السنة الماضية ـ ١٨٩٧ ـ على ردمه ، وشرع فى ذلك حتى امتلأ ، وأصبح الآن سكة عمومية . ولم يبال أهالى القاهرة بردمه أقل مبالاة ، بل إن أصحاب المنازل المبنية على جانبيه ربحوا كثيرا بزيادة أثمان أملاكهم » .

---

(١) المقطم فى ٤ ـ ٦ ـ ١٨٩٨ .

وفى صيف سنة ١٨٩٧ حصلت الشركة على امتياز بخط يمتد من الجيزة إلى الهرم . كما حصلت فى شتاء سنة ١٩٠٢ على امتياز بخط يمتد من باب الحديد ، ماراً على كبرى شبرا ، فشارع شبرا ، ثم يتفرع منه خط إلى ساحل روض الفرج . وقد تم هذا الخط فى ١٩ مايو سنة ١٩٠٣ .

وفى سنة ١٩٠٨ سيرت قطاراتها من العتبة إلى الجيزة رأسا عن طريق كوبرى الملك الصالح ، وكوبرى عباس ، بعد أن تم إنشاؤهما .

وفى سنة ١٩١٢ احتفلت بتسيير قطاراتها إلى الجيزة عن طريق الزمالك ، بعد الانتهاء من تشييد كوبرى أبى العلا ، وكوبرى الزمالك .

وفى سنة ١٩١٣ مدت خط القلعة إلى الإمام الشافعى ، وخط أبى العلا إلى المبيضة بروض الفرج .

وعندما وقعت الحكومة[١] عقد الامتياز للشركة ، لم تخص نفسها بشىء من الدخل . ولم تشترط عليها التخلى عن أملاكها وجميع مايتعلق بها عند انتهاء مدة العقد . وقد تداركت ذلك سنة ١٩٠٨ ، فعقدت اتفاقا جديداً ، قبلت الشركة بمقتضاه أن تجعل للحكومة ٥٪ من إيراداتها تدفع شهريا .

* * *

وقد وضعت الشركة بالاتفاق مع الحكومة لائحة[٢] خاصة ، وعرضت على مجلس الشورى فناقشها وصادق عليها . وأهم بنودها أن كل محدث غوغاء ، أو سكران ، أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس ؛ يمنع من ركوب الترام . ونصت المادة الثامنة على أنه لا يجوز وضع شىء من الأشياء على الخط ولا يجوز تسلق العواميد المعدة للحركة الكهربائية أو تعليق شىء عليها ، أو إقامة

---

(١) المقطم فى ١١ـ٧ـ١٩٠٨ (٢) الوقائع فى ٢١ ـ ٤ ـ ١٩٠٠ .

إشارات كاذبة ، أو المسير قدام العربات السائرة ، أو مرافقتها ، أو المسير خلفها ، أو التعلق بها بأى وجه من الوجوه . فاقترح الشيخ محمد عبده أن يزاد بهذه المادة « عبارة بين الشريطين » عقب عبارة « أو المسير خلفها » فقوبل اقتراحه بالاستحسان .

* * *

ولم تختف عربات الأمنيبوس بظهور الترام ، بل ظلت تعمل فى حيز ضيق إلى أن ظهر لها منافس جديد ، وهو السيارات العامة ، وكان ذلك فى سنة ١٩٠٨ ، ولكنها لم تكن مريحة لكثرة المطبات ، ولرائحة الوقود الكريهة ، وما ينبعث من دخانه . وقد وصف أحد الكتاب حالته حينما ركب إحدى هذه السيارات لأول مرة فى حياته تحت[1] عنوان « أقبح اختراع ظهر فى القرن التاسع عشر » فقال « رأيت منذ مدة قريبة أن أركب أوتومبيلا من باب العلم بالشىء . فقصدت موقفا ، وامتطيت صهوة أحد المقاعد . وما كدت أتبوأ ذلك المقعد حتى حرك السائق قضيبا كان بجانب ساقه ، فسمعت دويا قبيحاً ، وشممت رائحة كريهة ، وشعرت بارتجاج فى جميع أجزاء جسمى ، فكنت والجالسين كمن اعترتهم حمى . فتجلدت وظننت بادىء بدء أنه ربما كان ذلك لعدم تعود ركوبها . وأخيراً تحركت فملأ الدخان ، وثار العثير ، وهبت رائحة الغاز الكريهة فاستعذت بالله . وأتى المحصل فطلبت منه تذكرة لآخر الخط ، انتقاما من نفسى الأمارة بالسوء ، حتى لا تعود تطالبنى بركوب هذا المركب الخشن . وفى تلك الأثناء عرجت السيارة على اليسار ، فوقعت على من كان بجانبى ، ووقعنا على الثالث . ثم ملنا جميعاً على الرابع . ولولا الحاجز

---

(١) مجلة الديك فى ١٧-٦-١٩٠٨ .

لذهبنا ضحية تقليدنا الأغنياء . ومازلنا على هذه الحال ، وكلما مالت السيارة ذات اليمين ملنا يميناً ، أو ذات الشمال ملنا شمالاً ، كأننا فى حفلة ذكر ، إلى أن وصلت بنا محطة مصر ، فنزلت وأنا ألعن الأوتومبيل ومخترعه وصانعه » .

وقد اختفت هذه السيارات بقيام الحرب العالمية الأولى ، نظرا لعدم وجود الوقود أو قطع الغيار . كما انكمشت عربات الأمنيبوس لاستيلاء السلطة العسكرية على الدواب والعلف . ولما عادت السيارات العامة إلى العمل سنة ١٩٢٧ اختفت عربات الأمنيبوس ولم يبق منها إلا خط واحد ، بين حى الحسين والشرابية ، ظل يعمل إلى أن توقف سنة ١٩٤٠ .

وعلى الرغم من ظهور السيارات العامة ، فقد ظل الترام سيد الموقف كوسيلة للانتقال ، وبخاصة فى خلال الحرب العالمية الثانية ، حين كادت السيارات تختفى من الشوارع .

مجتمع القاهرة

فى عصر الترام

لا يخفى أن الترام كان وما زال وسيلة انتقال شعبية رخيصة، متيسرة من الساعة السادسة صباحاً إلى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. ولم تكن فى ذلك الوقت سيارات كثيرة تزحم الشوارع، ولا عدد كبير من المارة أو الباعة الذين يشغلون الأرصفة. فكان الترام يسير بسرعة فائقة. وكان إنشاؤه نقطة فاصلة فى المجتمع القاهرى الذى انتقل من عصر البداوة والتأخر ممثلا فى استخدام الحمير والبغال وسيلة للانتقال، إلى عصر الحضارة والمدنية ممثلا فى استخدام قوة الكهرباء. و بعد أن كان سكان كل حى يعيشون فى عزلة تكاد تكون تامة عن سكان الأحياء الأخرى، بدأوا ـ بفضل الترام ـ ينتقلون من حى إلى حى. وأصبح من اليسير على الإنسان أن يسكن فى العباسية مثلا، بينما محل عمله فى السيدة زينب. وأمكن التلميذ الذى لا يجد مدرسة فى حيه أن أن يلتحق بمدرسة فى حى آخر.

وكان أهل الحى قبل إنشاء الترام «يجتمعون[1] فى الدور، ويتزاورون فى القصور. وكان سراتهم وذوو اليسار منهم يجلسون فى بيوتهم للسمر، فيغشاها العالم ويؤمها الكاتب، ويقصدها التاجر، وينتجعها الأديب، فتجرى بينهم الأحاديث، وتقوم سوق المناقشات. يحدث الحادث فيخوضون فى ذكره، وتنزل النازلة فيجمعهم الألم على العمل على إزالتها. وتطل رءوس المشروعات فلا يفتأون يتبينون معارفها، حتى يقتلوا شئونها بحثاً، و يقفوا على

(١) ليالى سطيح لحافظ إبراهيم ص ٨٩، طبع الدار القومية سنة ١٩٦٤.

وقائمها جدالا . وينزل بأحدهم المكروه ، فلا يزالون يتلطفون بالسعى له ، حتى يأخذوا بيده ، وينهضوا به من عثرته . عقدت بينهم الزيارات عرا المودات ، فتراهم كأنهم أهل بيت واحد ، يألم الجار للجار ، ويأخذ الناهض بيد ذى العثار » .

أما بعد الترام ، فقد بدأ الناس يميلون إلى الخروج لاستنشاق الهواء العليل فى الحدائق . « وأصبح[1] اسم حديقة الأزبكية مرادفا فى الأذهان للنزهة والبهجة ، والأنس والسرور . فلا تذكر على السمع حتى يخطر على البال تنزيه الطرف ، وترويح الصدر من عناء الأشغال » « وأقبل الناس[2] على التريض واستنشاق النسيم العليل عصارى كل يوم فى جهة روض الفرج، حتى اضطرت شركة الترامواى إلى جعل كل قطر مؤلفا من عربتين » . «وانحلت[3] روابط الأهل والأقارب . ويبس مابين البيوتات ، فتناكر الأخوان ، وتدابر الجاران ، وأقفرت المنازل من أنس السمر ، وألف الناس الجلوس فى المنتديات ، حتى إنهم ليوحشون فى ديارهم لقلة زوارهم . وأصبح المرء فى داره حاضراً كالغائب ، مقيما كالنازح ، يعلم من حال البعيد عنه مالم يعلم من حال القريب منه » .

« وانعدمت[4] سيطرة الأب على ابنه حتى صار لايجسر على إزهاق عقوقه لو تطرف عن واجباته ، أو تأديبه لو أقدم على أمر يغاير الآداب . وضاع نفوذ المعلم على تلميذه ، فنشأ الأبناء على غير مذهب آبائهم ، والتلامذة على نفوس لم يهذبها الزجر ، وتؤدبها سيطرة التربية » .

---

(١) المقطم فى ٢٨-٢-١٨٩٨ .
(٢) المؤيد فى ٢٨- ٥ -١٩٠٣ .
(٣) ليالى سطيح ص ٩٠.
(٤) الشهامة فى ١٣ - ٢ - ١٩٠٠ .

« وانتشر[1] التدخين بين تلاميذ المدارس. ومنهم من يتعاطى الخمر، ويقضى الليل فى مراقص الأزبكية ومغانيها ، مختلطا بالمومسات والراقصات ، ثم يذهب فى الصباح إلى المدرسة شاحب الوجه ، متحدثا إلى إخوانه بما فرط منه فى الليل، مفتخرا بما ارتكب من المعاصى ، واقترف من الآثام » .

وكان المعممون من طلبة الأزهر ودار العلوم يترددون على المواخير والمراقص « ويتحمسون[2] عند سماع ضربات الأوتار ، ونغمات الألحان . ومع ذلك لم يتركوا مغازلة الغيد الحسان ، ومعاقرة بنت الحان . وتراهم يضجون ضجيج الاستحسان إذا رأوا الراقصات يترنحن ذات اليمين وذات الشمال كالأغصان . أما جماعة المطربشين فحدث عنهم ولاحرج . فهؤلاء قد ألفوا التردد على مواخير الفسق ، ولا يرون فيه عارا ، بل يرون فيه رياضة للنفس وتفريجا للهم . هؤلاء يشربون الخمر ، ويفتخرون بشربها على قارعة الطريق » .

* * *

واستطاعت المرأة أن تركب الترام ، وتذهب فى غيبة زوجها إلى حيث تشاء . قالت صحيفة المقطم (١٩ ـ ٨ ـ ١٨٩٨) « . . . وما يفعله بعض أدبائنا الذين شاركوا الغوانى فى لباسهن ، والمخنثين فى أخلاقهم ، من ارتيادهم الطرقات والمنتديات ، وهم كلما رأوا سيدة عارضوها فى طريقها ، وأسمعوها من بذاءة أقوالهم ما يحمر له وجه كل حر خجلا . وأنكى من ذلك وأشد وقاحة شراؤهم الصور القبيحة وإبرازها أمام كل مخدرة يلتقون بهما ، فتأخذ تلك المسكينة الرعدة من هذه السفالة . ولا يزالون فى أثرها حتى تلج حانوتا ، أو تركب مركبة تخلصا من شرهم ، فيغربوا إذ ذاك فى الضحك . هؤلاء غير رجال وخط الشيب

---

(١) المؤيد فى ١٣ — ٨ — ١٩٠٧ (٢) المؤيد فى ٨ — ١ — ١٩٠٨

رأسهم ، تجدهم عصارى كل يوم فى محطة الـكهربائية العمومية ، يركبون القطار ذهابا وجيئة ، وليس لهم من أرب سوى التهـكم وإبداء سفالتهم لـكل امرأة يجدونها فى القطار وحدها ، ولا رجل معها » .

وقد اتخذت محطات الترام أمـكنة صالحة لتقابل العشاق ، ومغازلة النساء والاحتكاك بهن ومطاردتهن «[1] وبلغ الفساد مبلغا لم يشاهد فى البلاد الأجنبية ، فقد عثروا فى يوم واحد على ثلاثة عشر لقيطا فى جوانب القاهرة » .

وكان مما يشاهد فى الشوارع جهارا نهارا ، أن المرأة إذا سارت « تمد[1] إليها الأيادى ، وتمسك بتلك السواعد المـكشوفة ، وتداعب بصنوف المداعبة . وأن الواحدة لا يكون من شأنها ـ إذا جرى لها ذلك التعرض ـ إلا الابتسام » بل كان الرجل « يمسك[2] من المرأة مكانا مستورا ، ويبوء بالخزى والعار » .

جاء فى مجلة المنار (٢٥ ـ ٩ ـ ١٩٠٠) تحت عنوان « التهتك فى مصر وتلافيه » «أظن أنه لا يوجد بلد إسلامى ، أو غير إسلامى ، فيه من التهتك ما يدانى ما فى مصر ، لاسيما القاهرة . أرى الرجال من جميع الطبقات يتعرضون لـكل من عليها مسحة من الجمال ، يغازلونها ويناغونها ، وإن لم يروا منها عينا خائنة ، أو إشارات شائنة . أرى من الرجال من يمد يده إلى المرأة المتبرقعة فى الشارع ، كأنما هى حلياته فى زاوية بيته . أرى المرأة تطوف فى مثل شارع الغورية ، فـكأنما هى المراد بقول الشاعر :

كرة حـــذفت بصوالجة   فتلقفها رجل رجـــل »

ومما ساعد على انتشار موجة الفساد أن خطباء المساجد أخذوا منذ بدء

---

(١) المؤيد فى ٣ — ١٠ — ١٩٠٠   (٢) المؤيد فى ٣٠ — ١٠ — ١٩٠٦ .
(٣) المؤيد فى ٦ ـ ٣ ـ ١٩٠٧

العصر التراى يحذرون النـاس ، و ينذرونهم باقتراب موعد القيامة . فعـكف كثيرون على الشهوات ليمتعوا أنفسهم قبل أن يدركهم الموت . قالت صحيفة المنار (٢٦ ـ ٧ ـ ١٨٩٨) « إن اعتقاد الناس أن هذا ـ أى الأمور المحدثة ـ من علامات الساعة ، ومن خصائص آخر الزمان ، قد سهل على غَوِيِّهم ارتـكاب الفواحش ، واجتراح السيئات . وأمسك لسان رشيدهم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر » وقالت صحيفة اللواء (٤ ـ ٢ ـ ١٩٠٤) « وقف الخطباء ـ أى خطباء المساجد ـ بين الجنة والنار ، يحذرون من هذه ، ويؤنسون من تلك ، حتى ماتت النفوس وانقطع منها الأمل فيما يوصل للسعادة من عمل . وخشيت الحرمان فى دنياها مما قنطت به فى آخرتها ، فاسترسلت فى شهواتهـا خوف الغبن فى الصفقتين » .

وكتب سائح عربى وفد إلى القاهرة فى صيف سنة ١٩٠٧ مقالا [1] جاء فيه : « ... هالنى مارأيت فيها ـ أى القاهرة ـ من التهتك وقلة التمسك بالدين، وعدم احترام الآداب فى الطرق والمعاهد العامة ، بما لم أتصور وقوعه فى قطر من أقطار المسلمين ، فضلا عن مصر التى هى قلب الأقطار الإسلامية » .

وقال مصطفى [2] لطفى المنفلوطى « ... وحدثنى من أثق به أن كثيرا من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهدا أمام أخلائهن أن يكن لهم بعد الزواج ، أى بعد أن يصبحن مُطْلَقَات من قيود العُذرة وروابطها، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت ليلة البناء بها ، أو فى صبيحتها كتب الوشاية بهـا من الأشخاص الذين اتصلت بهم ، وأخلصت إليهم ، فانتهى أمرها فى حياتها الجديدة بالشقاء والعار » .

(١) المؤيد فى ١١ — ٨ — ١٩٠٧ (٢) النظرات ٢/١٠٧ — التجارية

وتناول المنفلوطى[1] أخلاق شباب العصر الترامى، وما أصابها من انحلال وانهيار ، تحت عنوان « الآداب العامة » فقال « يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا فى هذه الأيام ، واتخذوا لأنفسهم فى حياتهم العامة طريقا غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم ، وبمنزلة العلم الذى يزاولونه ، فأصبحوا مَتبذلين فى شهواتهم ، مستهترين فى ميولهم وأهوائهم ، ينتهكون حرمات الأعراض ماشاءوا ، وشاءت لهم نزعاتهم ، ويعبثون بها فى كل مكان ، عبث الفاتك الجرىء ، الذى لايخاف مغبة ، ولايخشى عارا . وأهول مايتحدثون به عنهم فى هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتى لايزلن يختلفن إلى مدارسهن ، أو اللواتى انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن ، وينصبون لهن صنوف الحبائل ، وأنواع الأشراك لاصطيادهن وإسقاطهن فى هوة الإثم والعار . وهذا ما أريد أن أتكلم عنه قليلا » .

« أصحيح مايقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن إليكم ، وتهدون إليهن صوركم ليهدين إليكم مثلها ؟ فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن ، أخذتم تنشرونها فى كل مكان ، وتعرضونها فى كل معرض ؟ » .

« أصحيح أنكم تقفون لهن بكل طريق ، وتأخذون عليهن كل سبيل ، فإذا عجزتم عنهن فى الطريق ، أرسلتم وراءهن الرسل فى منازلهن يخادعنهن ، وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ، ويداخلنهن مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم ؟ » .

« أصحيح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل

---

(١) النظرات ٢ / ١٠٧ — التجارية .

الغرام ، وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل، تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها ، وربما جلستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ، ترقبون نوافذها وكواها ، علها تنفرج لكم عما تحبون ؟ » .

« أصحيح أنكم أصبحتم لاتقنعون فى أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتى يقعن فى مخالبكم بإفساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد موقعا عليه بتوقيعاتهن ، مستشهدا عليه بصورهن وخطوطهن، لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك ، وتحولوا بينهن و بين التفلت من أيديكم ، والحياة بعيدا عنكم ، فى جو غير جوكم ، وجوار غير جواركم ، عذارى أو متزوجات ؟ »

« أصحيح أنكم لاتكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن ، فتشركوهن معكم فى شرب الخمر ، وتناول المخدرات ، سائلها وجامدها ، فلا تلبث أن تنتهى حياتهن بما تنتهى به حياة الساقطات ؟ » .

أصحيح أنكم فقدتم فى تلك السبيل التى تسلكونها خلق الرجولة والشهامة فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء ، وتزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن. وأصبح الرجل منكم لاهم له فى حياته إلا أن يتجمل فى ملبسه ، ويتكسر فى مشيته ، ويرقق من صوته ، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور، ويقضى الساعات الطوال أمام مرآته ، متعهدا شعره بالترجيل ، وبشرته بالتنضير ، وثناياه بالصقل والجلاء ، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التى لاتنفك عنكم ، وحتى سرى التأنث من أجسامكم إلى نفوسكم ، فلم يبق فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب ؟ » .

« إن كان حقا ما يقولون كله أو بعضه ، فرحمة الله عليكم أيها الفتيان

المساكين ، وسلام على الفضيلة والشرف ، سلام من لايرجو عودة ، ولاينتظر إيابا » .

* * *

ولم يقتصر الفساد فى القاهرة على سكانها الأصليين ، بل جاراهم فى ذلك الوافدون إليها من أعيان الأرياف القاصية . مثال ذلك أحمد عياد وكيل قناصل انجلترا وروسيا والبلجيك فى الأقصر . حضر إلى العاصمة فى أغسطس سنة ١٨٩٨ ، وتوجه إلى إحدى الحانات ، وأفرط فى شرب الخمر وتعاطى الحشيش . ثم عاد إلى الفندق الذى كان مقيما به ، فوجد الجو حارا ، ففتح الشباك وجلس فيه . فغلبه النعاس ، فهوى إلى الشارع وصدم فى نزوله شرفة فكسرت ساقه ، وسقط على رأسه إلى الأرض فتهشمت جمجمته ومات فى الحال . وقد نقلت جثته إلى الأقصر حيث دفن هناك فى يوم ٢٧ أغسطس .

ولم تقف موجة الفساد عند حدود العاصمة ، بل امتدت إلى البلاد النائية . ففى مدينة الأقصر فتح بعض الأروام عدة حانات . وكان بعض أهل المدينة يصنعون عرقى البلح . ونشأت بيوت الدعارة الرسمية فى شارع مجاور لمدرسة الأقباط والحارات المتفرعة منه . كما وجدت بيوت للدعارة السرية . وانتشرت حفلات الزار ، وما تخفى وراءها من عربدة ومجون . كما شاع تعاطى الأفيون والحشيش وأنواع السطل بين شباب المدينة . وكان مولد أبى الحجاج فرصة طيبة للراقصات والمومسات وطلاب اللهو الحرام .

ومن خلال هذه الصورة نستطيع أن نفهم كيف أن رجلا مثل أحمد شوقى ، شاعر الخديو ، الذى هو نائب أمير المؤمنين ، ووكيل خليفة رسول رب العالمين ، يتعاطى الخمر جهارا نهارا ، ويصرح بذلك فى شعر كثير يغرى القارئ على

ارتكاب هذه المعصية . وكذلك فعل حافظ إبراهيم ، وأحمد نسيم ، وإمام العبد .

* * *

ولما استغنى الناس بالترام عن عربات الركوب ، قبل الحوذيون أن تتخذ عرباتهم لأغراض غير شريفة . فكان الرجل يصطحب عشيقته فى إحدى العربات إلى الشوارع المظلمة فى الجزيرة أو شارع الهرم . كتب سيد على مقالا فى اللواء (٢١ ـ ٥ ـ ١٩٠٨) جاء فيه « ... وجدت نفسى محاطا بعربات لاشاغل ولا هم لراكبيها إلا تبادل النظرات ، وتجاذب الابتسامات ، والمحادثة بالإشارات ، وقد تساوى الرجل مع المرأة فى التأنق . فهذه جالسة بغير إزار ، مزحزحة النقاب إلى ماتحت الأنف والفم ، مكشوفة الصدر ، عارية النصف الأعلى من الظهر » إلى أن قال « فطريق الأهرام حفت بالمكاره والمفاسد ، وماجت بالمخجلات والمخازى ، مما يشج القلم ، ولا يقوى على تصويره » .

وقد يصطحب الشاب عشيقته ويسير بها فى الحارات المظلمة ، فيصيح به الأطفال : سيب النعجة يا خروف .

وظهرت فى الصحف إعلانات كثيرة عن أدوية تقوى الباه ، وتشفى من ارتخاء الأعضاء التناسلية . مثال ذلك إعلان عن « النفروطون » هذا نصه[1] « هو الدواء الوحيد الذى شهدت بفوائده أعظم أطباء العالم ، وأكدوا أنه يشفى تماما ضعف الأعصاب ، وضعف الباه ، ورطوبة الظهر ، والارتخاء المتسبب عن الإفراط فى الجماع ، ويشفى أيضا أسباب عدم التناسل ، ويفيد جدا فى سائر أمراض المعدة ـ ثمن الزجاجة ١٤ قرشا » . وإعلان بالمعنى المتقدم تحت عنوان إكسير[2] فينوس » .

(١ ، ٢) اللواء فى ٢ ، ١ ـ ١٠ ـ ١٩١٠ .

كما ظهرت إعلانات عن أدوية لشفاء السيلان والزهرى .

* * *

وقد انتشر القمار انتشارا عظيما بين مختلف طبقات الشعب . قال كرومر[١] فى تقريره عن سنة ١٩٠٠ « وعندى أمر آخر جدير بالذكر ، وهو أنى على قلة ما أعرفه من أعمال المضاربات فى مصر والإسكندرية ، بلغنى من أمرها ما أرانى أن الناس قد أفرطوا فيها على غير هدى . فخربت بيوت كثيرين ، وأمسى غيرهم على شفا الإفلاس . وامتدت العدوى إلى كل طبقات الناس . ولا يخطر ببالى أننى أستطيع أن أمنع تكرار هذه الأشياء بأقوال أقولها ، لأن من اعتاد المقامرة لا يصرفه النصح عنها مهما كثر » .

وقال أحمد شوقى[٢] :

ضربت بالمضاربين الطبول	حيث كل بأمرهم مشغول
كل يوم يمضى غنى وجيه	وعلى إثره سرى جليل .
ويبيع الأساس من ليس بالمثـ	ـرى لكن حدا به التطفيل
كان من ثروة البلاد قليل	بعد عام يزول ذاك القليل
ذهب النقد والعقار جميعاً	ياسراة البلاد أين العقول ؟
لو يكون الغنى كما قد زعمتم	كانت الكيمياء لا تستحيل
ليس بين الغنى والفقر إلا	قولة الشؤم من وسيط يقول

* * *

(١) المقطم فى ١ ـ ٥ ـ ١٩٠١ .

(٢) المجلة المصرية فى ١٢ ـ ٦ ـ ١٩٠٠ ، العدد الثانى .

ولما نجحت شركة الترام ، تألفت شركة بلجيكية أخرى للإضاءة الكهربائية في نهاية سنة ١٨٩٦ وشرعت منذ أوائل سنة ١٨٩٧ تمد المنازل بالتيار الكهربائي ، ولكن الأهالي « وجدوا[١] كثيرا من الحرائق التي لم يهتدوا إلى أسبابها ، أن السبب في أكثرها أسلاك النور الكهربائي التي يمدها في المنازل أناس لا يحسنون هذه الصناعة ، فإن تركيب الأسلاك ومعالجتها أصبح فرعا مخصوصا من الهندسة ، يتعاطاه مهندس كهربائي » .

وفي سنة ١٨٩٨ اتفقت الحكومة مع الشركة على إضاءة الشوارع نظير مبلغ من المال يدفع سنويا . قال كرومر[٢] في تقريره عن سنة ١٩٠٠ « وقد شاع استعمال النور الكهربائي في غضون السنة الماضية ـ ١٨٩٩ ـ وأخذ أهل الثروة من المصريين في إضاءة منازلهم بالنور الكهربائي . ووضعت الأسلاك الكبرى والثانوية تحت الأرض » .

* * *

وكان لإنشاء الترام أثر كبير في ارتفاع أثمان الأراضي والمنازل التي يمر بها . فما كادت الشركة تشرع في مد خط شبرا حتى ظهرت إعلانات في الصحف عن قطع من أراضي البناء معروضة للبيع . وكوسيلة في ترغيب الناس في شرائها نص الإعلان على أنها « على[٣] مسافة بعض أمتار من خط الترامواي » .

وقد ساعد وجود الترام على استبحار حركة العمران ، فتحولت المشش

---

(١) مجلة الهلال في ١ ـ ٣ ـ ١٨٩٧ .
(٢) المقطم في ٦ ـ ٥ ـ ١٩٠١ .
(٣) المؤيد في ٢٦ ـ ٣ ـ ١٩٠٣ .

الكثيرة والأرض الخراب إلى بيوت أنيقة على أحدث طراز « وزادت[1] أثمان البقع الواقعة فى وسط المدينة ضعفا وضعفين وثلاثة أضعاف » قالت صحيفة المؤيد (١٣ ـ ١٢ ـ ١٩٠٣) تحت عنوان « القاهرة ، ومستقبلها الزاهر بالعمران » « قسمت المنازل الفسيحة وحدائقها للبناء . وهذه جهات التوفيقية والحلمية وقصر الدوبارة ، وما امتد من أطراف العباسية وأقسام الخليفة والسيدة زينب ، وما تجدد فى بولاق والجزيرة وشبرا ، وما أنشىء من الضواحى التى امتدت إلى مسير نصف ساعة بالقطار البخارى ، أو ساعة بالترام ، على نماء مستمر » .

فظهور الترام قد أحدث ثورة هائلة فى الحركة العمرانية ، وغير من نظرة السكان إلى المنازل ، « فبعد ما كانوا يألفون السكنى فى الحوارى الضيقة ، وأشرافها يفضلون الإقامة فى الأزقة المسدودة ، ويدفعون الثمن الأعلى فى آخر بيت منها ، لبعده عن الحركة والضوضاء والغوغاء ، صاروا لا يألفون إلا السكنى فى الشوارع الواسعة ، ويطلبون المخرج قبل المدخل . فيهجر صاحب الدار الفسيحة داره ، لأن طريقه مسدود ، ويطلب داراً أخرى أقل سعة على شارع ينتهى للفضاء من الجانبين . وكرهوا الحوارى الضيقة ، ورغبوا فى الإشراف على الميادين ، فحصل من ذلك تغير كبير فى عمران المدينة ، حتى كادت الأحياء الوطنية التى كانت مقر الأعيان والأشراف تخرب وتنعق على أطلالها البوم » .

وتبعا لهذا التطور تألفت فى سنة ١٩٠٥ شركة بلجيكية لإنشاء حى جديد فى القرى الصحية بواحات عين شمس أو هليوبوليس . ولكن هذا الاسم الأخير كان ثقيلا على ألسنة العامة فأطلقوا على هذا الحى اسم « مصر الجديدة » قالت

(١) اللواء فى ٢ ـ ١٢ ـ ١٩٠٦ .

مجلة العجائب (٢٦ ـ ٤ ـ ١٩٠٦) « ولما جاء دور الاكتتاب تهافت عليه الصغار والكبار ؛ تهافتا لم يسمع بعد فى تاريخ المضاربة بمصر وأوربا وأمريكا ، ذلك أن الأسهم غطيت ٨٣ مرة ، منها ٤٥ مرة فى الإسكندرية ، وأربع مرات وكسور فى إنجلترا وبلجيكا ، والباقى فى مصر القاهرة . وبلغت قيمة الأموال التى قدمت إلى الشركة أكثر من مليونى ، ٥٠٠ ألف ج » .

ورئيس مجلس إدارة الشركة إدوار امبين ، وعنوانه شارع الكونفره ، رقم ٣٣ فى بروكسل . ونائبه فى مصر بوغوص باشا نوبار . وقد اشترت الشركة من الحكومة ٢٥ كيلو مترا مربعا ، أو ما يعادل ٥٩٥٢ فدانا ، بسعر جنيه واحد للفدان .

ومدينة هليوبوليس[1] القديمة كانت قائمة على ربوة صناعية فى الشمال الشرقى لمدينة القاهرة ، تبعد عن ضفة النيل اليمنى بضعة كيلو مترات . وكانت من المدن المصرية الهامة ، وبها جامعة تخرج منها بقراط ، وأفلاطون ، وأرسطوطاليس ، وجالينوس ، وغيرهم ممن نبغ فى السياسة والحكمة والبلاغة والطب . وقد أطلق عليها اليونانيون اسم « هليوبوليس » ترجمة لاسمها المقدس الذى عرفت به فى عهد قدماء المصريين وهو (با ـ رع) ومعناه : مدينة الشمس .

وقد اهتمت الشركة بتوفير سبل المواصلات إلى الحى الجديد . فحصلت على تصريح بإنشاء الترام السريع (المترو) وبدأ تسييره سنة ١٩١٠ ، كما مدت خطا للترام العادى ينتهى إلى العباسية ، وخطا آخر إلى الزيتون .

وكان الأجر الذى يدفعه الإنسان من ميدان الخازندار إلى مصر الجديدة

---

(١) المقطم فى ٢ ـ ٦ ـ ١٩١١ .

سبعة مليمات للدرجة الثانية ، وعشرة للدرجة الأولى . ثم زاد بعد الحرب العالمية الأولى إلى عشرة مليمات للدرجة الثانية ، وخمسة عشر مليما للأولى .

وشرعت فى تشييد المساكن وتأجيرها . وهذه صورة إعلان عن تأجير مساكن نشرت فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ « واحة عين شمس — هليوبوليس » « للإيجار بجانب الجامع الجديد والتراموای الذى سينشأ قريبا ، بيوت على الطراز التركى ، مؤلفة من ثلاث غرف ، أو أربع ، وفسحة وفرن . الأجرة من ٦٠ إلى ١٤٠ قرشا » .

وفى ٢ — ٦ — ١٩١١ احتفلت[١] الشركة بافتتاح مسجد مصر الجديدة ، برياسة الأمير حسين كامل ، نائبا عن الخديو عباس ، وبحضور جمهور من كبار العلماء والموظفين والأعيان الوطنيين والأجانب وبعض السياح والسائحات . يتقدم الجميع إسماعيل سرى باشا ناظر الأشغال والحربية ، وحشمت باشا ناظر المعارف ، وأحمد شفيق باشا مدير عموم الأوقاف ، والمستر جراهام بل مستشار الداخلية ، وقاضى مصر ، وشيخ الأزهر . وبعض النظار ووكلاء النظارات .

والجامع — كما جاء وصفه فى المقطم — بناء فخم ، قائم على ١٤ عمودا من المرمر ، طلق الهواء ، جميل البنيان ، كامل النظام ، منار كله بالمصابيح الكهربائية . وقد أقيم بجانبه سرادق جلس فيه المدعوون . وبعد أن فتحت الحفلة بتلاوة أى الذكر الحكيم ، وقف بوغوص باشا نوبار وألقى خطبة باللغة الفرنسية ، جاء فيها ما ترجمته :

---

(١) المقطم فى ٢ — ٦ — ١٩١١ .

كان غرضنا إنشاء مدينة صحية فى ضواحى القاهرة ، وسط الصحراء ، جاف هواؤها ، نجمع لها كل مايلزم من أسباب المعيشة والرفاهية ، ونتخذ فيها كل مايطلبه أهلها من الاحتياطات الصحية ، ونصلها بالقاهرة بقطارات سريعة تمكن سكانها من الوصول إلى مقار أعمالهم فى بضع دقائق .

ومع أن العمل فى هذا البلد لم يبدأ إلا من نحو أربع سنوات ، فإنه قد ظهرت فى عالم الحقائق مدينة عصرية ، تسطع فى أرجائها شموس الكهرباء . وأنشئت فيها المعدات الصحية على أحسن طراز ، ورفعت فيها القصور السامقة ، وتوفرت فيها أنواع الرياضات . وبفضل إيجاد القطار السريع ، أصبحت وليس بينها وبين القاهرة إلا مقدار ربع ساعة من الزمان . واجتمع لهذه المدينة الحافلة بالسكان مايربو عدده على الثلاثة آلاف . وهذا العدد يزداد كل يوم زيادة مطردة. ونظرا إلى أن أغلب سكان مصر الجديدة ـ كما يسميها العامة ـ هم من المسلمين الذين أحلهم فى هذا البلد ماوجدوه فيه من أسباب الراحة ، رأينا أن نقدم لهم شيئاً أجل من هذا كله ، فأقمنا لهم مسجداً يؤدون فيه فرائض دينهم ، وهو المسجد الذى نفتتحه اليوم ، وتجاوزنا عن إدارته إلى ديوان الأوقاف » .

وكدعاية للحى الجديد ، أقامت الشركة مدينة للملاهى أطلقت عليها اسم « لونا بارك » أى وادى القمر . قالت صحيفة المقطم (١٧ ـ ٦ ـ ١٩١١) « فتح هذا الوادى أمس ، وتقاطرت إليه جماهير المدعوين من أهل العاصمة ألوفا . وظلت وسائط النقل على اختلاف أنواعها تنقلهم من العشاء إلى قرب نصف الليل . وكان مدخل ذلك الوادى وجوانبه مكللة بالأنوار الكهربائية تكليلا جميلا ، ومزينة بها زينة تأخذ بالأبصار . فانتشر المدعوون فيه زرافات ووحدانا ، وقضوا جانبا طويلا من الليل وهم يتنقلون من فرجة إلى فرجة ،

ومن لعبة إلى لعبة ، ومن تسلية إلى تسلية . فكان قوم يمشون فى كهوف وهم يهتزون اهتزازاً شديداً ، بقوة خفية ، قيل إنها الكهربائية ، فيضحكون من رؤية بعضهم البعض، ويُضحكون سائر الناظرين إليهم . وقوم يمشون على شبه نول الحائك ، فيتحرك بهم تارة إلى الأمام ، وطوراً إلى الوراء ، كأنهم يرقصون وما هم براقصين . وقوم يمشون أمام مرايا مستوية ومقعرة ومحدبة ، على أشكال مختلفة ، فتريهم صورهم مشوهة تشويها مضحكا . فتارة يكونون قصارا صغاراً كالقزم ، وتارة طوالا كبارا كالجبابرة ، وتارة طوالا من أوساطهم إلى رءوسهم ، وقصارا من أوساطهم إلى أقدامهم ، وتارة بالعكس . وتارة طوال الوجوه والقامات ، دقاقها . وتارة قصارها وعراضها وغلاظها . وهم كلما مروا أمام مرآة ضحكوا وقهقهوا ، وأضحكوا الذين حولهم أيضا »

« وقوم يقفون على ألواح مستديرة ، تدور بقوة شديدة ، فإذا بعدوا عن مركزها قليلا انقذفوا عنها بالقوة الدافعة عن المركز ووقعوا خارجها ، فيضحكون ويُضحكون . وقوم يصعدون إلى قمة دكة عالية ، ويركبون هناك قوارب تنحدر بهم على جانب الدكة انحداراً عظيما إلى بركة ماء أو بحيرة صغيرة فى أسفلها ، حتى يخيل إلى الناظرين أن القارب غارق بهم لا محالة ، ولكنه إذا وصل إلى الماء سار على وجهه بسرعة فائقة مسافة قصيرة ، ثم أوقف عند آخر البركة وعاد منها ، وهلم جرا » .

« وقوم يركبون قطارات تسير على سكك حديدية سيرا سريعا . فتطلع بهم تارة ، وتنزل أخرى على جوانب وقمم رابية قائمة على حافة الوادى ، وهم يصيحون بأعلى أصواتهم ابتهاجا بتلك الحركات الغريبة ، وطربا بسير يتوهم الناظر إليه أنه كله خطر ، وما فيه من خطر » .

« وقوم يركبون زوارق تسير بهم فى قنوات بعضها معقود ، وبعضها مكشوف . وقوم يطلعون وينزلون على سلالم متحركة إلى أعلى وأسفل ، ويمنة ويسرة . فكأنهم قد أصيبوا برعدة شديدة ، حتى يضحك منظرهم التسكلى فى طلوعهم ونزولهم عليها . وقوم يزلقون ويتزحلقون فى المزاق الواسع العظيم المعروف عند الإفرنج بالسكاتنج رنك . وقوم يجلسون فى قهوات ذات طبقات ، يتناولون المبردات والمثلجات ، وينظرون إلى تلك الجماهير ، ويشنفون الآذان بسماع الألحان » .

« وقد أدهشت هذه المناظر الجمهور ، حتى كان بعضهم يقول إنهم فى واد مسحور . وكان آخرون يقولون إن الانجليزى الذى أنشأ هذا الوادى نقله برمته من أرلزكورت بلندن ، فأرانا وادى القمر فى عين الشمس بمصر » .

* * *

وقال أحد شعراء ذلك العصر تحت عنوان « وادى القمر »[1] :

ركبت الترام عشاء فراح ... يجد المسير لوادى القمر

ولما وصلت هناك رأيت ... سنا الكهرباء يقر النظر

ملاه تسر وتبعد عن ... نفوس الحضور دواعى الكدر

فمن بركة ملئت بالضياء ... على شاطئيها يطيب السمر

ومن زورق نازل من عل ... وآخر ينساب فوق النهر

ومن سلم صاعد هابط ... كأن مواطئه من أكر

ومن داخل الغار نفخ الهوا ... يعرى محاسن ذات الخفر

ومن وعر منحدرات الجبال ... يمر القطار كلمح البصر

(١) المقطم فى ٢٢ ـ ٢ ـ ١٩١٢ .

ومن دورة بالرحى تقذف الـ ذين عليها كقذف الأكر
ويغرب فى ضحكه من أتى الـ مرايا وأبصر تلك الصور
فطفت المحال مع الطائفين شبيبة مصر مناط الفكر
خفاف ملاح يلوح عليهم ذكاء الفؤاد وسيما الحضر
تروقك فى السوح روحاتهم فآنا فرادى وآنا زمر
مدار الحديث إذا ما التقوا بلادهمو غرسها والثمر
وبينما أنا فرح معجب بما من خلالهمو قد ظهر
إذا بفتى وإلى جنبه أوربية من ذوات الحور
يقول لهـا وتقول له حديث الغرام بغير حذر
وكانا من السكر فى حالة تمثل خاق رعاع البشر
هى الخمر سورتها دائما تزيل الحيا وتزيد الهذر
وهمّ بهـا وهى همت به عناقا ولثما وكرا وفر
وما برحا هكذا هكذا وما برحا يرمقان شذر
إلى أن رأيتهما يمما مكان القباقب ذات البكر
فدارا قليلا ومن دونها هوى فإذا كل فرد صقر
وقد أسمعوه نكات أشد على الحر من وخزه بالإبر
أتأمل مصر يكون على يدى مثل هذا قضاء الوطر؟
وهل مثل هذا يناضل عنها ويفحم إدورد أوكتشنر؟
فيأيها النشء إن العلا بكد النهى وبحسن السير
خيار الرجال بهذا الوجود همو الخيرون زمان الصغر
تنال الشعوب دساتيرها بخير الفعال وخير الأثر

وقد أتاحت الشركة فرصة تمليك المساكن للراغبين فى ذلك . فكانت تبيع لهم الأرض بسعر المتر أربعين قرشا ، وتقوم هى بالبناء على أن يسدد المالك ثمن الأرض والبناء ، على أقساط ، بفائدة ٣ ٪ للأرض ، ٥ ٪ للبناء . ونتج عن ذلك أن زاد عدد السكان فبلغ ٤٧٢٩ فى سنة ١٩١٢ .

وفى يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ « احتفلت[1] الشركة بنصب الأثر المقام تذكارا للطيار الفرنسى لويس بيير موليار ، وللطيارين العربيين : ابن فرناس والجوهرى ، السابقين إلى اكتشاف صناعة الطيران من أهل الشرق والغرب. وقد حضر الاحتفال رئيس النظار والنظار ، وكبار الموظفين والأعيان . ووضع على وجهى العمود من اليمين إلى اليسار صورتان لموليار وهو يرقب طيران الطيور ، وهما مصنوعتان من البرنز أيضا ، ونقش على وجه العمود من الوراء بالعربية الأبيات الآتية :

إن يركب الغرب متن الريح مبتدعا ... ما قصرت عن مداه حيلة الناس

فإن للشرق فضل السبق نعرفه ... للجوهرى وعباس بن فرناس

قد مهدا سبلا للناس تسلكها ... إلى السماء بفضل العلم والباس »

* * *

وفى سنة ١٩٠٦ فكرت شركة الدلتا فى إنشاء حى جديد فى معادى الخبيرى ، عرف بحى المعادى . قالت صحيفة المقطم (٢٠ - ١ - ١٩١٠) « أنشئت - أى المعادى - على النمط الأوربى . فيها المبانى الجميلة الحديثة، والقصور الشاهقة المزخرفة . ومعظم هذه المبانى على الطراز الإنجليزى ، مسقوفة بالآجر - القرميد - وتتخللها الشوارع النظيفة الواسعة المرصوفة بالمكدام الأبيض ،

(١) المقطم فى ٢٦ - ٢ - ١٩١٢ .

ومتنزهات بديعة حاوية لكل أنواع الأزهار والرياحين . وأرض تلك المدينة منبسطة وكأنها بساط أخضر ، بما فيها من الخضر والزهور . وتخترقها قناة يجرى فيها ماء النيل . وأمامها البحر الكبير . وقد وضعت عليه شركة الدلتا وابورا لجر المياه منه إلى المنازل ، وآخر للكهرباء . وكل منازلها تنار الآن بالكهرباء ويشرب ساكنوها من ماء النيل العذب ، يجرى إلى منازلهم بالمواسير . وأنشأت جنينة غناء ، مساحتها ١٧ فدانا ، فيها كل أنواع العنب وباقى الأثمار ، تحيطبها أشجار السرو الطويل . وأنشأت طريقا واسعا على النيل من المعادى إلى مصر ، ورصفتها بالمكدام الأبيض . وقد بلغ طول هذه الطريق ثلاثة كيلو مترات » .

* * *

وبوجود الترام استطاع الكتاب والشعراء أن يجتمعوا فى مقاهى الأزبكية وحاناتها . فنشأ بينهم صدام ، وتولدت خصومات عنيفة ، ظهر أثرها فيما نظم من قصائد الهجاء ، وشعر النقائض .

وازداد عدد النشالين الذين يحتكون بركاب الترام ، ويسلبون النقود والساعات . قالت صحيفة اللواء (٢ ـ ١٠ ـ ١٩١٠) تحت عنوان « الركوب من الشمال » ، « كثرت شكاوى الجمهور من ضياع بعض أشياء سرقت منهم أثناء ركوبهم مركبات الترام . ثم اتضح أن اللصوص إنما أولئك الأولاد الذين يتعلقون من جهة الشمال ، بحجة اللعب أو الركوب ، حتى إذا صادفوا غرة من أحد الركاب ؛ سلبوا منه ما تصل يدهم إليه » .

الترام والحركة التجارية

لما أصبح فى قدرة ساكن القاهرة الانتقال من مكان إلى مكان فى أى وقت شاء بفضل وجود الترام ، وكانت الخطوط كلها تبدأ من ميدان العتبة ، أو تنتهى إليه ، فقد نشأت فى حى الأزبكية المحلات الكبرى لتجارة التجزئة التى نشاهدها اليوم . وبلغ من[1] تزاحم التجار وأصحاب الفنادق والمطاعم والمقاهى والحانات أن ارتفع سعر المتر من أرض البناء فى حى الأزبكية إلى ستين جنيها سنة ١٩٠٥ وإلى تسعين فى الموسكى .

ومن المحلات التجارية التى افتتحت فى الأزبكية عقب تسيير الترام : محلات آل[2] مدكور ، فى ٧ - ١٢ - ١٨٩٦ ، وقد زارها الخديو عباس وطاف بأركان المحل ، وشاهد أنواع البضائع فى كل قسم . وقال لحسن بك مدكور : إن هذه أول مرة يدخل فيها خديو مصر محلا تجاريا فى القطر المصرى . وأنه قصد بهذه الزيارة التشجيع على تنمية روح التجارة الوطنية فى البلاد » .

ومحلات يوسف وأحمد الجمال فى الموسكى سنة ١٨٩٦ ، وقد اشتهرت بتجارة المنسوجات .

وقد أدرك الأجانب ما ينتظر حى الأزبكية من التقدم والرواج والازدهار بعد وجود الترام . فبادروا إلى إقامة المبانى الفخمة ، والمتاجر الأنيقة . قال أحد الكتاب فى صحيفة المؤيد (١٤ - ١٠ - ١٩٠٠) « ... وحسب المصرى إذا وقف فى ميدان الأوبرا الخديوية والعتبة الخضراء ، باهتا متأملا ، متألما إن كان

---

(١) المؤيد فى ١٤ - ١٠ - ١٩٠٥ ؛ ٨ - ١٢ - ١٨٩٦ .

من ذوى الشعور ، على ما وصلت إليه الأجانب فى بلادنا من التزاحم فى الحياة والحركة التجارية ، ورفع بصره إلى مبانيهم الفاخرة الفخمة ، وبيوتهم التجارية الجميلة الأنيقة التى تأخذ بمجامع القلوب رونقا وبهاء ، وتستميل النظر بهجة وتركيبا وترتيبا ، وقارن بعدئذ بينها وبين وقفته فى الغورية ، والأشرفية ، وخان الخليلى ، وانقلاب المناظر من أبدع إلى أقبح ، وتزاحمهم ـ أى المصريين ـ فى التقدم إلى الوراء ، والمنافسة فى الفقر والتأخر » .

وقالت مجلة المنار (١٢ ـ ٤ ـ ١٨٩٨) « لو أن أحدا طار فى منطاد ، ونزل فى الأزبكية وطاف فيما يقرب منها ، يقول إن هذه المدينة هى أخت باريس أو بنتها » .

* * *

وقد ظهرت قيمة الإعلانات فى الصحف والمجلات والملصقات ، منذ وجود الترام . فالتاجر يعلن عن بضاعته ، وهو على يقين بأن الناس سيفدون عليه من جميع أنحاء العاصمة ، بعد أن سهل لهم الترام سبل الانتقال. فمثلا رأينا فى صحيفة المقطم (١٨ ـ ١٢ ـ ١٨٩٩) إعلانا عن محل مرطبات ، هذا نصه « إن محل سباتس تجاه حديقة الأزبكية ، مستعد لمبيع كافة أصناف المبردات الخالية من الغش ، المرشحة بمرشحات باستور ، ومن يتعاطاها يسر بها كل السرور » .
والنص فى الإعلان المتقدم على أن المبردات مرشحة بمرشحات باستور ؛ كان له أهميته فى ذلك الوقت . فقد مر بنا أن معظم مبانى العاصمة لم يكن يستمد ما يلزمه من المياه من الشركة ، بل من السقائين الذين يجلبونه من النيل مباشرة أو من الآبار ، مما يعرض صحة الناس للمرض . فقطعا لكل شك ، أعلن صاحب هذا المحل أن مياهه مرشحة ، أى أنها خالية من الشوائب والجراثيم .

وهذا نص إعلان آخر نشر فى المقطم بتاريخ (٨ — ١٢ — ١٨٩٨) .

« أعلن صاحب حمام شنيدر الشهير فى بناء حليم باشا بالأزبكية أنه فتح أبوابه من أول ديسمبر الجارى لطالبي الاستحمام فيه نساء ورجالا ، فى جميع ساعات النهار » وفى هذا الإعلان من الإغراء مالايخفى .

وقد اتخذت عربات الترام نفسها وسيلة للدعاية والإعلان . فمثلا[1] حدث أن وطنيا فتح مدرسة فى سنة ١٩٠٣ ، فاستأجر إحدى المركبات الكهربائية وزينها بالورود والرياحين ، وعلق بها لوحات تحمل اسم مدرسته وعنوانها ، وسيرها فى جميع الشوارع التى تمتد فيها خطوط الترام ، إيذانا بافتتاح تلك المدرسة .

وبعد تسيير الترام بعامين ، أى فى سنة ١٨٩٨ ، تم افتتاح البنك الأهلى . وقد اتفق على شروط إنشائه المستر بالمر المستشار المالى بالنيابة عن الحكومة المصرية ، وبين بعض رجال المال الإنجليز . وتقرر أن يكون شركة مساهمة ، رأس مالها مليون جنيه ، مقسمة إلى مائة ألف سهم ، سعر الواحد عشرة جنيهات .

وتعين بالمر[2] مديرا للبنك بمرتب ٤٠٠٠ ج . م فى السنة ، بعد أن انتهت

(١) المؤيد فى ٣٠ — ٩ — ١٩٠٣ .

(٢) قالت صحيفة المؤيد (١٩ — ٧ — ١٨٩٨) « بلغ به — أى بالمر — التطاول على هيئة مجلس النظار ، وعلى مقام الخديوية أيضا ، أن أخذ على النظار عهدا أن لايقابل الجناب الخديوى أحدهم أو كلهم ، دون أن يكون ذا نصيب فى هذه المقابلة ، ليتمكن من الرقبى عليهم ، كما هو مأمور بذلك . وكان لايبالى أن يفرط منه كلام غير لائق مع بعض النظار ، الذين كان يتهمهم بعدم صدق الولاء إذ ذاك للاحتلال ، وهو الذى سافر إلى لندن وعقد شروط بيع الدائرة السنية بصفته وكيلا عن الحكومة المصرية . وعقد شروط إنشاء البنك الأهلى مع مشترى الدائرة أيضا ، بصفته وكيلا عن الحكومة ، فى الوقت الذى كان يتفق فيه مع المؤسسين على أن يكون مديرا لهذا البنك بالشروط التى تقررت بينهما » مات بالمر فى أسوان سنة ١٩٠٦ .

مدة خدمته فى الحكومة كمستشار مالى ، وكان يتقاضى ٢٠٠٠ ج . م فى السنة . وتعين وكيلان انجليزيان ، وأعضاء مجلس الإدارة وعددهم خمسة عشر عضوا ، كلهم من الأجانب .

وقد خولت الحكومة للبنك حق إصدار العملة الورقية ، فارتفعت سمعته ، وأقبل الناس على الاكتتاب فى أسهمه . وقد غطى رأس المال ٣٣ مرة فى ظرف ساعات قلائل ، فبلغ المال المكتتب ٥٣٣ر٩٤٧ سهما ، فى حين أن الأسهم التى أعلن عنها كانت ١٦ ألفا فقط ، فرد النقود إلى أصحابها ، واحتفظ بنسبة ٣٪ من الأسهم لكل فرد . أى أن الذى اشترى مائة سهم ، حفظ له ثلاثة ، ورد المال الزائد . جاء فى تقرير كرومر[1] عن سنة ١٨٩٨ مانصه « عملة الورق ـ رخصت الحكومة فى إنشاء بنك أهلى ، ومنحته امتيازا بإصدار ورق يتعامل به الناس كالدراهم ، وتدفع حين الطلب . وتكون إدارة إصداره مستقلة عن أشغال البنك الأخرى » .

« أما الأوراق فلا تكون واجبة القبول ، ولكن الحكومة تقبضها . وقد ورد فى نظام البنك أن نصف قيمة الأوراق المتداولة يبتاع به أوراق مالية تصادق الحكومة عليها . وأما النصف الآخر فيجب أن يكون ذهبا على الدوام » .

* * *

وسبق أن رأينا كيف نشطت حركة العمران بعد وجود الترام . فأقبل كثير من الوطنيين والأجانب على الاتجار فى مواد البناء ، وقامت مصانع الطوب والبلاط . ووجـــد عدد كبير من المواطنين موردا للرزق ، كالنجارين

---

(١) المقطم فى ١٤ — ٤ — ١٨٩٩ . (٢) المؤيد فى ٢٠ — ٥ — ١٩٠٣ .

والحدادين والبنائين ، ومركبي البلاط والأدوات الصحية والكهربائية والبوابين . ومن ذلك التاريخ بدأت هجرة أهل الأقاليم إلى العاصمة تتسع يوما بعد يوم .

ولما أنشأت الشركة خط شبرا ، والساحل فى سنة ١٩٠٣ ، كتب مندوب المؤيد ما نصه « أحسنت شركة الترامواى التدبير بإنشاء هذا الخط ، لتسهيل النقلة على كل من له علاقة عمل بتجارة الساحل ، التى هى من أوسع المتاجر ، وألصقها بضروريات الحياء فى مصر القاهرة . وقد اتفق لنا أثناء مرورنا ذهابا فى طريق شبرا أن شاهدنا جماعة من اليونان دائبين على العمل فى تلك الجهات الخلوية ، لإنشاء المتنزهات والقهاوى . فقلنا هكذا تكون الاختراعات رائدة العمران فى كل مكان » وقد بدأ كثيرون يستغلون أموالهم فى شراء الأرض وتقسيمها وعرضها للبيع . أو إقامة المبانى وتأجيرها ، على نطاق واسع لم يعرف من قبل .

الترام ساعد على تكوين الرأى العام

لما كثر اختلاط سكان العاصمة ، وعظم امتزاجهم أثر إنشاء الترام ، بدأ الرأى العام يتكون ، وبات له خطره وتأثيره على الأجهزة الحاكمة .

وأول ما نلاحظ ذلك حينما نشبت الحرب بين الدولة العلية واليونان فى أبريل سنة ١٨٩٧ ، فقد كان[1] المصريون يسهرون الليالى الطوال ، منتظرين بتشوف وشغف ورود أنباء القتال . وقد عم الفرح بانتصار الدولة ، وتشكلت لجان لجمع التبرعات لإعانة الجيش العثمانى ، بلغت ٤٥ لجنة فى العاصمة ، ٣٠٠ فى سائر جهات القطر . وتشكلت لجنة للسيدات المصريات برياسة حرم رياض باشا. قالت صحيفة المؤيد (٢٩ ـ ٥ ـ ١٨٩٧) « ... ولعل هذا أول عمل خيرى اشترك فى القيام به ، والتضافر عليه السيدات المصريات مع الرجال. وإنه ليسرنا أن تنمو فيهن فكرة مشاركة الرجال فى مهام الأعمال ، حتى يعلمن أنهن نصف الهيئة الاجتماعية التى يجب أن تساعد النصف الآخر فيما يخصه ، فى كل مايعود بالخير العام على بنى الإنسان ، أو تؤدى به فريضة وطنية ملية واجبة الأداء على الخاص والعام » .

ولم يقتصر جمع التبرعات على الأغنياء ومتوسطى الحال ، بل رؤى أن يشارك فيها الفقراء ، كل حسب طاقته . فوضعت صناديق مغلقة فى المساجد ، فأقبل الفقراء ـ فى حماسة منقطعة النظير ـ على إلقاء النقود فيها . وبذلك ساهمت الأمة على اختلاف طبقاتها فى هذا التبرع ، وكانت مظاهرة وطنية رائعة .وأفتى

---

(١) من خطبة لمصطفى كامل ـ المؤيد فى ٨ — ٩ — ١٨٩٧ .

قاضى مصر وعلماء الأزهر أن مساعدة الدولة فى تلك الحرب ، تعتبر من الفروض العينية على كل مسلم .

ولما اقترب عيد الجلوس السلطانى ، وكان فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٩٧ احتفلت به الأمة المصرية احتفالا لم يسبق له مثيل ، ولم تخف دلالته على رجال الاحتلال . فمنذ صباح ٢٨ أغسطس أخذ السكان يجدون فى إقامة الزينات ، لا فرق بين غنى وفقير . هـذا أمام بيته ، وذاك أمام حانوته ، حتى لا يكاد الإنسان يرى فى جميع الشوارع والحارات إلا أعلاما تخفق فوق جدران المساكن والمحلات التجارية . وأقيمت حفلات ساهرة فى حديقة الأزبكية وصالات الرقص والغناء والمسارح ، غنى فيها المغنون ، ومثل الممثلون ، ولعب الحواة . وقد انقلب الليل نهارا من شدة الأضواء ، وأطلقت المدافع تحية وابتهاجا بالعيد ، وكذلك السهام النارية . وسيرت شركة الترام مركباتها حتى الساعة الثالثة صباحا . وأقيم احتفال كبير فى الأزهر ، حضره بضعة آلاف من الطلبة والعلماء ، وألقيت فيه الخطب ، وأنشدت القصائد . قالت صحيفة المؤيد (١ -٩- ١٨٩٧) « احتفلت الأمة المصرية أمس بشمائر ذكرى عيد الجلوس الشاهانى المجيد ، احتفالا باهرا . ولم يسبق لمصر أن تحتفل بمثل هذا الاحتفال قبل العام الحاضر. فهو إذن بمثابة صوت عام من الأمة المصرية ، يعلن دوام ارتباطها وتعلق أميالها الخالصة بجلالة المتبوع الأعظم من جهة . وإعلان بحجة دامغة على الاحتلال أنه أجنبى غاصب ، تجفوه القلوب ، وتتخطاه الأميال ، من جهة أخرى » .

وقالت صحيفة الوطن القبطية (٣-٩ - ١٨٩٧) تحت عنوان « معنى احتفال المصريين » « لم يسبق فى سنة من السنين أن المصريين احتفلوا بعيد جلوس

الحضرة السلطانية بمثل احتفال هذه السنة . فكان يحل العيد ويمضى دون أن يهتم أحد به ، غاية الأمر كان أولياء الأمور يحتفلون ببعض احتفالات رسمية . أما هذه السنة فتنبه المصريون إلى ارتباطهم بالحضرة السلطانية ، واحتفلوا فى جميع أنحاء القطر المصرى ، وتنافسوا فى إظهار الولاء لجنابه الرفيع بإقامة الزين الباهرة من تلقاء ذواتهم . وهذا الاحتفال هو بمنزلة تظاهر ضد الاحتلال ، وبمنزلة إحكام العروة الرابطة مصر بالدولة العلمية . فالإنجليز كانوا يتمنون فك هذه العروة ، حتى ينظر المصريون إليهم وحدهم ، ويعولوا فى الأمور عليهم . ولكنهم – أى الإنجليز – نهجوا فى سياسة أتت على غير مرامهم . فإن المصريين رأوا أن غاية سياستهم ابتلاع مصر ، فاختصوا بكل وظيفة رفيعة ، وصار لهم النفوذ الأكبر والشوكة العظمى فى جميع المصالح ، فلا يمكن أن تحصل كلية ولا جزئية إلا عن أمرهم . هذا فضلا عن عدم الوفاء بالعهود التى تعهدوا بها منذ خمسة عشر سنة ، من أنه إذا استتب الأمن الداخلى ، وصارت مصر آمنة على حدودها ، وانتظمت أمورها ، انجلوا عنها . وقد تم كل هـذا ، ولكن لم تمض سنة إلا أحدثوا مسوغا للبقاء » .

والذى يهمنا فى هذا المقام ، هو إجماع الصحف العربية والإفرنجية ، الإسلامية والقبطية ، على أن هذا الاحتفال لم يسبق له مثيل . وعلى أن سكان القاهرة قد تنبهوا فى هذا العام بالذات إلى مايعنيه احتفالهم بعيد الجلوس السلطانى . وعلى أنهم تقاطروا على أمكنة الاحتفالات حتى اكتظت بهم دور التمثيل وصالات الغناء ، والمقاهى ، وأمكنة اللهو . ولا شك فى أن وجود الترام قد ساعد على قيام هذه الاحتفالات وإعطائها رونقا وبهاء ، تلك الاحتفالات التى دلت على تكون الرأى العام ، فقام لأول مرة بمظاهرات رائعة ، اعتبرت موجهة ضد الدولة المحتلة .

وكان مايحدث فى العاصمة ينعكس صداه فى الأقاليم . ففى الأقصر أقيمت الزينات . وكان فى مقدمة المحتفلين بالعيد أعيان المدينة ، وهم إذ ذاك : أيوب بك صبرى ، وأحمد عياد ، ومنشتح بك كرار ، وعلى مراد ، وعبد الكريم بك العمارى .

* * *

لم تمض أيام على هذه الاحتفالات حتى فكر الإنجليز فى القيام بمظاهرة عسكرية ، الغرض منها إرهاب الشعب . ففى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٧ خرجت فصيلة[1] انجليزية فى رحلة تدريبية إلى القناطر الخيرية . فمرت بقليوب ، حتى إذا كانت أمام مصنع للنسيج اليدوى ، يملكه وطنى اسمه « على جلجل » ، وكان العمال فى فترة راحة ، فعبثوا بالجنود . فادعى قائد الفصيلة أن العمال اعتدوا على جنوده بالبصق ، وإظهار علامات الازدراء ، والرمى بالحجارة .

فلما سمع قائد جيش الاحتلال بذلك ، أظهر أشد الغضب ، وأصر على وجوب تأديب المعتدين . وكان كرومر فى الاسكندرية ، فحضر على عجل ، واجتمع بالقائد المذكور ، وأبلغ الأمر إلى نظارة الداخلية . وتقرر أن يتولى هرفى باشا حكمدار العاصمة التحقيق ، تمهيدا لتقديم المتهمين إلى المحكمة المخصوصة .

وقد تجمعت عند كوبرى شبرا بعض كتائب من جيش الاحتلال ، مشاة وفرسانا ، وسارت ليلا إلى قليوب . وفى فجر اليوم العشرين من سبتمبر « استيقظ[2] أهالى قليوب من نومهم ، فأبصروا الفرسان الإنجليز محيطة بالبلدة

(١) المقطم فى ٣٠ — ٩ — ١٨٩٧ .
(٢) المؤيد فى ٢١ — ٩ — ١٨٩٧ .

من جوانبها الأربعة . وبعضا منهم متفرقين فى داخلها . وقد حظروا على الرجال والأولاد الخروج من البلد ، إلا النساء فإنهن كن يعبرن كيفما شئن . وطبقت الولولة وأصوات البكاء والاستغاثة تلك الأنحاء . وقد تزيا كثيرون من الرجال بأزياء النساء ، واخترقوا الحصار فلم يعرفهم أحد ، إلا رجل انكشفت حيلته ، فسيق إلى المركز ، وسئل عن ذلك فقال : إننى فقير ، لا قوت فى منزلى ، ولا معين لى ، فاحتلت على الخروج بهذه الحيلة ، لا لقصد غير أننى ابتاع كيلة من الغلة لأقتات بها . فأفرج عنه » .

« أما العساكر الإنجليزية فكانت تقبض على سائر رجال قليوب وغلمانها وتقودهم إلى المركز ، حيث تجمع خلق كثير . وكان قائد الفرسان الإنجليز المعتدى عليها حاضرا أثناء التحقيق ، فعرض عليه هذا الجمهور الكبير ، بقصد أن يتعرف على الفاعلين الأصليين ، فعرف ثلاثة منهم ، وأطلق جانب الآخرين جميعا ، إلا سبعة عشر شخصا ، وضعت الأغلال والقيود فى أيديهم ، وسيقوا مشاة إلى شبرا ، ومنها حملتهم عربة إلى المحافظة ، ومن بينهم « على جلجل » صاحب مصنع النسيج . ونحو الساعة الواحدة بعد الظهر فك الحصار ، وأبيحت للأهالى حرية الدخول والخروج » .

وقد حكمت المحكمة المخصوصة على «على جلجل» بمرافقة الحملة السودانية، والعمل بها مدة ثمانية أشهر ، وعلى «على الصعيدى» ومصطفى بلال، وإبراهيم عزبون بمرافقة الحملة المذكورة والعمل بها مدة ستة أشهر . وبرأت الباقين بعد أن أنذرتهم بعدم العودة إلى مثل تلك الأمور . وذكرت أنها استعملت الرأفة مع المتهمين .

وقد توجه مدير القليوبية إلى مقر قيادة الجيش البريطانى ، واعتذر رسميا عن الحادث .

* * *

ولم يستطع الإرهاب البريطانى أن يحول الرأى العام عن مجراه الطبيعى . فاستمر الاحتفال بعيد الجلوس السلطانى كل سنة . ولما نشبت حرب البوير سنة ١٩٠٠ ، فرح المصريون للهزائم المتتابعة التى لحقت بالإنجليز ، وأظهروا عطفاً كبيرا على البوير . وكانت هذه الحرب حديث الناس فى المجالس والمنتديات . قالت مجلة الموسوعات (١٥ ـ ٤ ـ ١٩٠٠) « هذه أمة الترنسفال الضعيفة بذاتها ، القوية بأنفتها وشهامتها ، قد كرّت عليها الدولة الإنجليزية بكتائبها الجرارة ، تقاتلها فى بلادها ، وتنازعها حياتها واستقلالها ، بلا حق مشروع ، ولا مسوغ مقبول ، سوى ما تسوله لها أطماعها المأثورة ، وتدفعها إليه أميالها المشهورة ، مدعية أن هذه الأمة الصغيرة قد أتت المنكرات ، واقترفت المحظورات ، على حين أنها ما أرادت إلا حفظ استقلالها ، ولا قصدت غير صيانة حقوقها ، شأن كل ذى حياة يذود عن نفسه ، ويتحوط لحياته . وما خلنا أن يحسب أداء هذا الواجب الحتم جرما فظيعا فى أعين ناشرى ألوية التمدن والحرية ، وحماة حمى العدالة والإنسانية » .

* * *

وما كاد مشروع سكة حديد الحجاز يظهر إلى الوجود سنة ١٩٠٣ حتى تألفت اللجان فى جميع جهات القطر لجمع التبرعات . وتألفت لجنة فى مدينة الأقصر برياسة[1] أيوب بك صبرى . ونظمت القصائد ، وكتبت المقالات

(١) جاء فى صحيفة المقطم (١٤ـ١٠ـ١٩١٢) مانصه «نعى لنا من الأقصر وجيه قومه =

فى الدعوة إلى التبرع . فمن ذلك قول أحمد شوقى ، من قصيدة طويلة .

يا أمة المصطفى جلّت حوائجكم   فقدّموا الخير عل الله يقضيها
لا تسمعوا لمريب فى خلافتكم   كفى الخلافة ما يأتى أعاديها
ما هذه الحرب فى زى السلام لكم   إلا صليبية والكل صاليها
تكثروا ما استطعتم من ديونكمو   عند النبى فإن الله موفيها
تلك الإعانة لا مين ولا كذب   إعانة المصطفى جبريل جابيها
فمن يضن على طه وفى يده   فضول مال فللشيطان مافيها

= المرحوم أيوب بك صبرى، من كبار عيانها ، وأوسعهم جاها . خدم العقيد الحكومة المصرية فى عدة وظائف ، كان فيها مثالا للنزاهة والإخلاص . وعين مفتشا للدائرة السنية فأبقى باجتهاده طيب الذكر . وقد وقف على الأعمال الخيرية عدة أوقاف ولحفظة القرآن الشريف . وله فى الدين الإسلامى مؤلفات جليلة ، ومناظرات تدل على واسع اطلاعه . وله أياد بيضاء على المدارس والكتاتيب ، ومدرسة الأقصر الصناعية ، وقنا الإسلامية . توفاه الله بالغا السبعين من عمره » .

الترام والحركة الثقافية

لما سهل على سكان العاصمة الانتقال ، كثرت الجمعيات الأدبية والعلمية والدينية . ففى سنة ١٨٩٨ تألفت الجمعية الطبية المصرية ، والجمعية الزراعية ، وجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية ، وجمعية شمس الإسلام . وفى سنة ١٩٠٤ تشكلت جمعية إحياء العلوم العربية ، وتأسس نادى طلبة المدارس العليا سنة ١٩٠٦ ، وجمعية زهرة الآداب سنة ١٩٠٩ ، وجمعية الشبان المسيحيين سنة ١٩١٠ ، ونادى الموظفين سنة ١٩١١ ، ونادى العمال سنة ١٩١٢ ، وهكذا توالى ظهور مثل هذه الجمعيات والأندية على ممر الأيام . وكانت تلقى فيها المحاضرات الأدبية ، والعلمية والدينية ، وتنشد فيها القصائد .

وكثرت الجمعيات الخيرية التى قامت بدور عظيم فى نشر التعليم بافتتاح المدارس الابتدائية والثانوية للبنين والبنات ، والملاجىء والمشاغل . وانتشرت المدارس الليلية . وظهر أثر ذلك فى زيادة الإقبال على التعليم العالى . ففى سنة ١٨٩٨ ، أى بعد وجود الترام بعامين تقدم ٢١ طالبا للالتحاق بمدرسة الطب ، بينما كان مجموع الطلبة الذين التحقوا بها فى المدة من سنة ١٨٩٢ — ١٨٩٥ أحد عشر طالبا . وكان طلبة مدرسة المهندسخانة ١٦ طالبا سنة ١٨٩٧ ، فبلغ عددهم خمسين فى عام ١٩٠٠ ، وكذلك زاد عدد طلبة مدرسة الحقوق ، ودار العلوم التى جدد بناؤها سنة ١٩٠١ .

وفى سنة ١٨٩٧ « أدخل[1] على التدريس بمدرسة الزراعة تغيير شامل فانقصت مدة الدراسة النظرية ، وزيدت مدة الدراسة العملية ، على يد إنجليزى

---

(١) تقرير كرومر عن سنة ١٨٩٧ ، المقطم فى ٩ — ٦ — ١٨٩٨ .

استدعى من الهند خصيصا لذلك . فيعمل التلاميذ فى حرث التربة وريها ، وزرعها وحصدها ، وبذلك استغنى عن الفعلة . وتعين غلة الأرض للتلميذ الذى يزرعها ، وهو مخير فى إبقاء مايجنيه له ، أو بيعه والانتفاع بثمنه » وكان عدد من التحقوا بهذه المدرسة سنة ١٩٠٠ (٥٤) طالبا ، منهم عشرون أجنبيا .

وفى سنة ١٨٩٧ قررت إدارة الجامع الأزهر إدخال بعض العلوم الحديثة ضمن مواد الدراسة . قال كرومر[١] فى تقريره عن تلك السنة « وأشهر من ذلك أن مديرى الجامع الأزهر طلبوا ١٣ أستاذاً من أساتذة المدارس الأميرية ، وأدخلوا طرقا جديدة للتعليم فى الجامع الأزهر من أنفسهم . أما الدروس التى يدرسها أولئك الأساتذة فهى الرياضيات ، والجغرافيا ، ورسم الخرط . وإذا نظرنا إلى ازدحام التلامذة عفوا واختيارا عليهم لتلقى العلم منهم ، حكمنا أن تدريس تلك العلوم فى مدرسة اشتهرت باقتصارها على العلوم الدينية فقط يعد نجاحا عظيما » .

وكان عدد طلبة الأزهر سنة ١٩٠٣ (١٠,٤٠٣) ، منهم ٦٤٥ من أبناء البلاد الإسلامية .

* * *

ومنذ سنة ١٩٠٠ بدأت[٢] الأصوات ترتفع مطالبة بإنشاء جامعة .

وقد تجاوزت الحركة الثقافية مدينة القاهرة إلى الأرياف . ففى شهر أبريل سنة ١٨٩٧ اجتمع أعيان الأقصر فى منزل الخواجة اندراوس بشارة ، وتبرع كل منهم بمبلغ من المال لبناء دار جديدة صحية لمدرسة الأقباط ، كما تألفت

---

(١) المقطم فى ٩ — ٦ — ١٨٩٨ .

(٢) مجلة الهلال فى ١ — ٢ — ١٩٠٠ ، والمقطم فى ٢ — ١٢ — ١٩٠١ .

جمعية خيرية لإنشاء مدرسة الأقصر الصناعية ، برياسة يسى بك اندراوس ، وأسندت أمانة الصندوق إلى عبد الكريم بك العمارى ، وعضوية : أيوب بك صبرى ، ومنشتح[1] بك كرار ، وأحمد بك سليم ، والسيد محمد الزينى . قالت صحيفة المقطم (١ ـ ١٢ ـ ١٩٠٩) « جربت الآلات بمدرسة الأقصر الصناعية بحضور حضرات وكيل مديرية قنا ، ومفتش الداخلية ، ومفتش قسم النظام ، وجناب مدير خط سكة حديد أسوان ـ الأقصر . وقد أديرت آلات الخراطة والجلخ والمثاقب وآلة نشر الخشب وخرطه وغير ذلك من الآلات العديدة ، وكلها تدار بالبخار » .

« وتحتوى مدرسة الأقصر على أربعة عنابر كبيرة للتشغيل . واثنين للتدريس . وهى واقعة فى بقعة طلقة الهواء ، وفيها فضاء كبير يسع بناء عدة عنابر أخرى ، ستبنى كلما دعت الحال ، وزادت الرغبة فى تعلم الصنائع » .

* * *

(١) منشتح بك كرار ، من عرب العبابدة الذين استوطنوا على حدود مصر والسودان وقد انضمت هذه القبيلة إلى الدراويش فى مبدإ الأمر ، لذلك حكم عليه بالإعدام ، ولكن لما بدأ الاستعداد على الحدود لفتح السودان ، مالت القبيلة المذكورة إلى جانب مصر ، وحاربت الدراويش بقيادة شيخها صالح بك خليفة ، الذى قتل فى وقعة المرات . جاء فى تقرير كرومر عن سنة ١٨٩٣ مانصه « هجم الدراويش على نقطة المرات ، بين كورسكو ، وأبى حمد ، وقاتلتهم الحامية المقيمة هناك تحت قيادة الشيخ صالح بك خليفة قتالا شديدا ، وردتهم على أعقابهم ، بعد ماقتل منها صالح بك خليفة وأحد عشر نفسا من رجاله » وقد خلفه فى رياسة القبيلة منشتح . قالت المقطم (١٧ ـ ١ ـ ١٨٩٤) « تعطف الخديو فى أثناء طوافه بالحدود ، وأصدر أمره بالعفو عن منشتح بك ، من رؤساء القبائل فى تلك الجهات ، وكان قد حكم عليه قبلا بالإعدام ، ثم خلع عليه خلعة سنية ، وأذن له أن يذهب بعميته إلى كلبشة » وقد استمر فى القتال مع الجيش المصرى حتى سقطت دولة الدراويش ؛ وكان كتشنر يحبه ويجله ، ولما زار الأقصر فى مارس سنة ١٩١٢ كان منشتح ضمن مستقبليه فى المحطة . قالت المقطم فى (٥ ـ ٣ ـ ١٩١٢) « وقد حادث جنابه — أى كتشنر — منشتح بك صديقه القديم منذ حرب الدراويش نحو خمس دقائق » .

وعلى أثر إنشاء الترام ظهر عدد من المجلات الأدبية والدينية والعلمية . ففى سنة ١٨٩٧ صدرت مجلات : الأجيال ، والصاعقة ، وحمارة منيتى . وفى سنة ١٨٩٨ صدرت مجلات : المنار ، والمرصاد ، والزمن ، وجهينة ، وطبيب العائلة. وفى سنة ١٨٩٩ صدرت مجلة الجمعية الزراعية ، والموسوعات ، والأسد المرقسى ، والعائلة ، وهى مجلة علمية أدبية نسائية .

وألفت كتب مدرسية كثيرة . ومنذ سنة ١٨٩٧ اتجه بعض المؤلفين إلى العناية بشئون المرأة . فصدر فى العام المذكور كتاب « إرشاد العائلات إلى تربية البنات » لأحمد الحفنى . بحث فيه عن أهمية تربية البنات ، ووجوب تعليمهن، والفوائد التى تنشأ عن ذلك . وتكلم عن الزواج عند الأمم الأجنبية ، وعن الصفات التى يجب على الزوجين أن يتصفا بها ، وعن تربية الأولاد ، وأعمال الخياطة والغسيل ، وتنظيف الملابس ، وغير ذلك مما يتعلق بالبنات . كما ظهر سنة ١٨٩٩ كتاب « آداب الفتاة » لعلى فكرى ، أبان فيه فائدة تعليم البنات ، والاعتناء بتربيتهن .

ومن أهم الكتب الثقافية التى ظهرت سنة ١٨٩٩ كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين ، و « سر تقدم الإنجليز السكسون » تعريب أحمد فتحى زغلول .

وتم بناء المعرض الزراعى الصناعى بالجزيرة سنة ١٨٩٩ . وفى يوم الخميس أول أبريل سنة ١٨٩٧ احتفل بوضع الحجر الأساسى لدار الآثار المصرية فى جهة قصر النيل . « وألقى[1] ناظر الأشغال خطابا يناسب المقام باللغة الفرنسية ، فرد عليه الخديو بالفرنسية أيضاً . ثم أقبل جماعة من العمال الوطنيين بالأثواب البيض

---

(١) المقطم فى ١٦ — ١١ — ١٨٩٧

والعمائم الحمر ، يحملون حجرا ثقيلا ، هو الحجر الأول ، ويمشون رويدا ، رويدا وينشدون إنشادا رقيقا . وكان منظرهم ، وهم مقبلون ، من أبدع ما فى ذلك المشهد . ثم نزلوا الحجر ، وطرق الخديو عليه بالمطرقة كما يفعل البناء » وفى نهاية سنة ١٩٠٢ نقلت إليه الآثار من متحف الجيزة . وبهذه المناسبة صدر أمر خديوى[1] بإطلاق اسم مريت باشا على شارع الزهرية ، واسم شارع الانتكخانة على شارع فم الترعة .

وتم بناء دار الكتب ، ودار الآثار العربية بباب الخلق فى نوفمبر سنة ١٩٠٢ .

---

(١) المؤيد فى ١٣ ـ ١١ ـ ١٩٠٢ والوقائع فى ١٥ ـ ١١ ـ ١٩٠٢ .

الترام والحركة الفكرية

لم يعرف المصريون شيئا عن استخدام قوة الكهرباء قبل تسيير الترام . لذلك أخذ سكان العاصمة يتساءلون عن هذا السر العجيب . عربة مريحة جميلة ، تنساب على قضبان ، تضاء بمصابيح كهربائية بديعة المنظر والضوء . وأمام كل عربة مصباح يكشف لها الطريق ، ومصباح آخر خلفها . كل هذا جعل الناس حيارى وفى ذهول شديد . قالت مجلة الهلال (١ - ١ - ١٨٩٧) « كثر تحدث الناس فى هذه الأيام ، وخصوصا فى القاهرة عن الكهربائية وخصائصها ، لما شاهدوه من جرى عربات الترامواى بها ، جرى القطر الحديدية بالبخار ، فكتب إلينا غير واحد ، يقترحون علينا بسط ماهية الكهربائية ، وخصائصها ، وكيفية سير العربات بها . وقد سألنا بعض القراء عن الشرر الذى يشاهد بين العجلات والخط الحديدى ، وقد يظهر أحيانا عند طرف العمود من الأعلى » .

وفى العام المذكور - ١٨٩٧ - نشر حسن توفيق الدجوى « الرسالة[1] العلمية فى الترامواية الكهربائية » وقد جاء فى مقدمتها :

« أما بعد ، فإنى أقدم لتلك الأمة المصرية رسالة جمعت كل ما يتعلق بالترامواية وأجزائه وشروطه وقوانينه واختراعه ، مما يحتاج لعلمه كل إنسان ، حتى يعلم ما يراه بعينه ، أو يسمع عنه بأذنه ، خصوصا فى ذلك المشروع الجليل . وليزول من اعتقادات الأمة جانب عظيم من الضلالة ، ولتظهر لهم حقيقة

---

(١) منها نسختان فى دار الكتب بالقلعة ، تحت رقم ٧٣٨ ، ٧٣٩ علوم طبيعية .

العلوم والمعارف . فقد طالما سمعنا من أكثر الناس أن الطبيعة اسم لا يراد به إلا معناه فى مذهب الناتور اليست ـ الطبيعيين ـ أى الذين لا يعتقدون فى الإله ووجوده ، فنزع ذلك الكثير ثقتهم من المدارس ، فأضاعوا مستقبل أبنائهم الذين كان ينتظر منهم خدمة الأوطان بما يكتسبون من العلوم الضرورية لتلك الأزمان ، والتى يقتصر فى تعليمها على المدارس . فمن جهة يسيئون إلى هؤلاء التعساء الذين لا يجدون ما يسدون به رمق الفؤاد ، ومن جهة يخونون الإنسانية والمجموعة الوطنية ، ويحرمونها من خدمات هؤلاء الأطفال والشبان » .

فمن هذه المقدمة نرى أن من المصريين من كان يمتنع عن إرسال أبنائه إلى المدارس حتى لا يدرسوا الطبيعة التى تؤدى إلى الكفر . وقد حاول المؤلف أن ينفى عن علم الطبيعة هذه الوصمة .

ومن ذلك التاريخ ـ أى تاريخ إنشاء الترام ـ أخذ الفكر المصرى يتطور ويندفع إلى الأمام بخطوات ثابتة . واقتنع المصريون بفائدة العلم الحديث . فنجد صحيفة المؤيد (٦ ـ ٩ ـ ١٨٩٨) تعلق على سقوط دولة الدراويش سنة ١٨٩٨ فتقول « إن هذه الحرب مثال يوضح الفرق بين الحرب العلمية الصناعية ، وبين قتال الجاهلية . ولقد مضى الزمن الذى كان ينفع فيه المقاتلين إقدامهم وثباتهم واستقتالهم حتى يموتوا أو ينتصروا . ولذلك لم تغن شجاعة الدراويش الذاتية ، وتفانيهم فى الدفاع عن حوزتهم ، لأن نيران المدافع والبنادق البعيدة المرمى كانت تمطرهم بالصواعق المهلكات ، وتسوقهم إلى الموت فوجا بعد فوج ، حتى لم يبق فى وجه الباقين سبيل خلاص من الموت إلا التسليم » .

وفى سنة ١٩٠٠ لم يكن للجالسين فى المقاهى والأندية أو ركاب الترام من

حديث سوى الهزائم المتتابعة التى منيت بها الامبراطورية البريطانية فى حـ بها ضد البوير . وارتفعت الأصوات تطالب بأن تأخذ البلاد بأسباب المدنية الحديثة لأن البوير « كانوا[1] يحاربون حربا متمدنة ، يسوقونها بحسب أصول الفن ، وعلى رسوم خططها أركان الحرب . حربا أحرى أن تكون بالعقول ، لا بالأبدان » .

واشتد الجدل بين الناس « فالعارفون[2] بعداوة أوربا للشرق ، وطمعها فيه ، ظنوا أن مقتضى هذه العداوة أن نمقت كل ما هو عليه أهل أوربا ، ونعادى كل من يستحسن عملا من أعمالها ، أو يجنح إلى تعلم علومها ، والأخذ بأساليب مدنيتها ، يقيسون ذلك على ما يعهدون بينهم فى العـداوة الشخصية » .

* * *

وكانت فئة قليلة من رجال الأزهر تعارض إدخال العلوم الحديثة ضمن مواد الدراسة ، وتقول بعدم فائدتها للمصريين عموما ، وللأزهريين خصوصا . أما الأكثرية فـكانت مؤيدة لهذه العلوم ، ومرحبة بكل إصلاح . وقد دار نقاش طويل بين الطرفين على صفحات المؤيد .

فالمنتصرون يقولون « إن[3] علم تقويم البلدان وعلم التاريخ يعلماننا ما عليه الدول الحربية من الاستعداد ، وقد أمرنا أن نعد لهم ما نستطيع ، وورد أن نحاربهم بمثل مايحاربوننا به . فالقيام بامتثال هذا الأمر يتوقف على هذين العلمين . »

فيرد المعارضون قائلين « « قلنا[4] قوله القيام بهذا الأمر يتوقف ألخ . . .

---

(١) المؤيد فى ٢١ ـ ٣ ـ ١٩٠٠ .

(٢) من مقال لمحمد رشيد رضا ، المؤيد فى ٧ ـ ١٠ ـ ١٩٠١ .

(٣ ؛ ٤) المؤيد فى ٣٠ ـ ٣ ، ١ ـ ٤ ـ ١٩٠٠ .

ممنوع كما لايخفى . لم لايجوز أن نعلم ماعليه هذا العدو بالجواسيس ، وقد عرفت كيفية وصول أى شخص إلى أى جهة ، وأنها بالوابورات البرية والبحرية ، لا بمعرفة علم تقويم البلدان والتاريخ ، هذا على فرض صحة ما فى علم تقويم البلدان والتاريخ . وبذلك علم بطلان قوله بوجوب الاشتغال بعلم الجغرافيا والتاريخ للمصريين عموما ، والأزهريين خصوصا ، وأنهما كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » .

ويرد معارض آخر [1] قائلا : « قلت فى بيان فوائد علم تقويم البلدان ما ملخصه : إن الحرب الحاضرة ـ يعنى حرب البوير ـ واتفاق الجرائد على أن من أسباب انكسار الإنجليز فيها مدة خمسة أشهر ، عدم الوقوف التام على جغرافية تلك البلاد . فأجاب شيخنا الشيخ راضى بأنه لا يوافق على هذا ، لأن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء . وأنه لا سبب فيما ظهر له إلا التوكل وعدمه . وأنه لا يعقل جهل الإنجليز »

فيجيب أحد [2] المنتصرين « وهذا القول ـ يعنى قول الشيخ راضى ـ لا يحتاج إلى جواب ، لأن الأستاذ لا ينكر الأسباب ، وإنما أنكر سبباً واحدا أثبته الإنجليز أنفسهم . وحجة الشيخ على عدم جهل ضباط الإنجليز بجميع مواقع بلاد البوير وطرقاتها ، هى أن فى تلك البلاد كثيرين من الأمة الإنجليزية ، كأنه يرى أن وجود التجار والصناع من أمة فى بلاد ، يكون سببا لمعرفة جميع أفراد تلك الأمة بكل جزء من تلك البلاد ، وهو بديهى البطلان . »

* * *

(١ ، ٢) المؤيد فى ٢ ، ٣ / ٤ / ١٩٠٠

وفى سنة ١٨٩٩ صدر كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين ، فشغل الرأى العام مدة طويلة ، وانبرى للرد عليه وتسفيه آرائه كثيرون من العناصر المثقفة ثقافة عصرية ، مثل طلعت حرب ، وأحمد حافظ عوض ، وعبد القادر حمزة . قالت مجلة الموسوعات لصاحبها أحمد حافظ عوض (١٨٩٩/١١/١٩) « أصبح كتاب تحرير المرأة الشغل الشاغل لأفكار كثير من أدباء المصريين ، الذين استفزتهم الغيرة الإسلامية ، وحركتهم الوطنية ، فتنبهت إحساساتهم ، وتوجهت أنظارهم إلى أمر عرفوا مقدار أهميته ، وفطنوا إلى أن فى تقليدنا لعوائد الإفرنج ونبذ عوائد بلادنا وأهلينا ، تشبه بالغراب الذى لم تعجبه مشيته الموروثة عن آبائه ، فأراد محاكاة بعض الطير فى المشية ، فأخذ يمرن نفسه على ذلك ، فنسى مشيته الأصلية ، ، ولم تحصل له المشية التى أرادها ، وبقى يحجل فى مشيته . »

ولكن إذا كانت هذه الآراء ملائمة لعصر الحمير والبغال ، فإنها لم تعد لائقة بعصر الترام ، ولا مناسبة له . فجرت عليها سنة البقاء للأصلح ، فأخذت العلوم الحديثة تشق طريقها بين صفوف الشعب ، وتقهقر الحجاب ، وقل أنصاره يوما بعد يوم .

* * *

ولما ظهر الترام وطاب السهر ، وأقبل الشبان على العربدة ، أخذ خطباء المساجد يبكون على المنابر وينوحون ، ويذرفون الدمع السخين ، قائلين بدنو الساعة [1] ، واقتراب يوم القيامة ، وأن الدين قد تركت أحكامه ، واشتبهت أعلامه ، ولم يبق من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر . ويزهدون الناس فى الدنيا الفانية ، ويخوفونهم بالموت وحساب القبر . ويطلبون منهم أن ينصرفوا عن العمل

إلى العبادة . فكتب صاحب المنار مقالات طويلة ، بين فيها الأضرار الفاحشة التى أصابت المسلمين بسبب هذه الخطب . ومما جاء فى إحداها :[1] « من الظلم الفاحش ، والجهل العظيم مخاطبة أولئك الخطباء عامة الناس بالزهد بالدنيا والتزهيد بالعمل الذى هو وسيلة الكسب ومناط الارتزاق . وإنما يجوز مخاطبة العلية من الناس والأغنياء منهم بهذا ، أولا : لما فيه من الترغيب بمواساة الفقراء . وثانياً : لأن الزهد إنما يكون بشىء موجود ، لا بشىء مفقود . فالغنى إذا زهد فإنما يزهد بدنيا مقبلة عليه ، فيواسى بماله من هم فى دنيا مدبرة عنهم لينال الثواب . أما الفقير فزهده ليس فيه شىء من ذلك ، بل فيه مضرة عليه ، فيحرم عليه قطعا ، لأن الفقير المعدم زاهد بالضرورة ، لقلة مابين يديه ، فإذا زهد بلسان الشرع ، ازداد يقينا بفضل الزهد والراحة من عناء الكد ، بالانقطاع إلى العبادة ، فتنعدم منه الرغبة بالعمل ، وينطبع على البلادة والكسل ، فينقلب الزهد والعبادة وبالا عليه ، وظلما لمن يعول من الأهل والولد عليه . الإسلام دين العمل للدنيا والآخرة ، دين الجد والنشاط ، لادين الرهبانية والزهد . »

ويرد على القائلين بدنو الساعة محتجا بحديث[2] « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» وقال « فالساعة علمها عند الله سبحانه وتعالى ، كما جاء فى الكتاب . وما يعنينا إن كانت قريبة أم بعيدة. فعلينا أن نعمل بتلك القاعدة الذهبية التى وضعها أحد الفضلاء ، ونربى أولادنا عليها ، وهى : إذا أخبرنا ملك من السماء بأننا سنموت غدا ؛ فيجب أن نتمم واجباتنا اليوم ، ونموت غداً » .

(١ ؛ ٢) المنار فى ١٨٩٨/٧/٢٦
(١) المنار فى ١٨٩٨/٧/٢٦

وعلى كل حال فإنه منذ إنشاء الترام « بدأ [1] المصريون يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية . وبدت عليهم علامات التألم منها ، وأحسوا بضرورة العمل على تحسينها. وصلت إليهم أخبار الغربيين واختلطوا بهم، وعاشروا الكثيرين منهم ، وعرفوا مبلغ تقدمهم . فلما رأوا أنهم متمتعون بطيب العيش ، واتساع السلطة ، ونفوذ الكلمة ، وغير ذلك من المزايا التي وجدوا أنفسهم محرومين منها ، والتي لا قيمة للحياة بدونها ، انبعث فيهم الشوق إلى مجاراتهم ، والرغبة في الحصول على تلك النعم . وقام المرشدون وتزاحموا على بث الأفكار التي اعتقدوا أنها تهدى الأمة إلى طريق النجاح . هذا يدعو إلى العمل والنشاط ، وذلك إلى ائتلاف القلوب والاتحاد ، ونبذ أسباب الشقاق ، وآخر إلى حب الوطن والتفانى فى خدمته ، وغيره إلى التمسك بأحكام الدين ، وهلم جرا »

---

(١) المقطم فى ١٩٠١/١/١٨

الترام والحركة العمالية

كان لوجود الترام أكبر الأثر فى التقريب بين فئات العمال وتوحيد كلمتهم . ففى نهاية أغسطس سنة ١٨٩٦ ألف عمال[١] مصانع السجاير نقابة لترعى شئونهم وتدافع عن حقوقهم . وفى أكتوبر من العام المذكور تألفت[٢] نقابة عمال المطابع .

وفى نوفمبر سنة ١٩٠١ اعتصب[٣] الخياطون الذين يعملون فى مصانع إعداد الملابس الجاهزة ، واجتمعوا فى قهوة ألف ليلة وليلة بالأزبكية . وكانوا قد أعدوا لهم علما خاصا ، فأقسموا أمامه يمين الطاعة ، وقرروا الإضراب عن العمل حتى يجابوا إلى طلبهم ، وهو تعيين أجر على كل قطعة . وساروا فى مظاهرة يهتفون بحياة العدل ، وسقوط الظلم .

فقبض رجال الشرطة على ٢٧ عاملا ، وزجوا بهم فى السجن . وأخيرا أجيب العمال إلى مطلبهم ، وانتهى الاعتصاب .

وفى أوائل ديسمبر[٤] سنة ١٩٠١ اعتصب عمال مصانع السجاير، وساروا فى مظاهرة عظيمة بجهة باب الحديد ، ثم تجمعوا بعد ذلك فى شارع نوبار ، فأرسلت المحافظة ثلاثين خيالا لمطاردتهم وتفريق جموعهم ، فدارت معركة أصيب فيها كثيرون بجروح بليغة . ولم يحقق هذا الاعتصاب نتيجة ، لأن مصانع السجاير فصلت العمال المشاغبين ، ولم تكن وقتئذ قوانين تحميهم من الفصل التعسفى .

(١ ، ٢) الشرق فى ٣٠ ـ ٨ ، ١٧ ـ ١٠ ـ ١٨٩٦ .

(٣) المؤيد فى ٢٦ ـ ١١ ـ ١٩٠١ ، واللواء فى ٤ ـ ١٢ ـ ١٩٠١ .

(٤) اللواء فى ٧ ـ ١٢ ـ ١٩٠١ ، ٢٣ ـ ١٢ ـ ١٩٠١ .

وفى يناير[١] سنة ١٩٠٢ أضرب الحلاقون الذين يعملون عند أصحاب محلات الحلاقة ، مطالبين بتخفيض ساعات العمل . وإعطائهم إجازة نصف يوم الأحد . واجتمع سبعون منهم فى شارع المهدى بالأزبكية ، ومروا على محلات الحلاقة فى بعض الأحياء ، لتحريض عمالها على التضامن معهم . أما أصحاب محلات الحلاقة فقد رفضوا أن يجيبوا العمال إلى طلبهم ، بحجة أنهم يتكبدون خسائر ، وبذلك انتهى الاعتصاب على غير نتيجة .

* * *

وفى أكتوبر سنة ١٩٠٨ اعتصب[٢] عمال الترام ، وجلسوا على الخطوط فى مخزن شبرا ، والعباسية ، والجيزة . وكانت مطالبهم تنحصر فى أن تكون مدة العمل ٨ ساعات بدلا من ١٣ ، وزيادة المرتبات ، وحقهم فى الإجازات الاعتيادية والمرضية . وأن يمثلوا فى اللجنة التى توقع الجزاءات عليهم ، وعدم جواز فصل العامل إلا بناء على أسباب معقولة . وأن يعفى العمال من دفع ثمن البدل والأحزمة والشنط والنمر النحاسية التى تصرفها لهم الشركة .

استعانت الشركة بالحكومة فأرسلت رجال الشرطة الذين انهالوا على المعتصبين ضربا بالعصى والكرابيج حتى أجلوهم عن أماكنهم ، وبذلك خرجت القطارات يقودها سائقون كانوا يعملون من قبل ثم فصلوا . فأعادتهم الشركة وانتفعت بهم فى هذا الظرف . ولكن رجال الشرطة لم يستطيعوا التغلب على المعتصبين فى مخزن الجيزة ، لما أبدوه من المقاومة العنيدة . وفى اليوم التالى توجه إليهم حكمدار العاصمة على رأس قوة ضخمة من رجال الشرطة وعربات

---

(١) اللواء فى ١٩ — ١ — ١٩٠٢ .
(٢) المقطم فى ١٨ — ١٠ — ١٩٠٨ ؛ واللواء فى التاريخ المذكور ؛ وفى ٢١ — ١٠

الإطفاء . وهجمت القوة على العمال هجمة واحدة فأوسعتهم ضربا شديدا. وقبضت على نحو ثمانين عاملا ، وقادتهم إلى سجن محافظة القاهرة . وبذلك أخفق العمال فى تحقيق أى مطلب مما طلبوا .

* * *

إلا أن عدوى هذا الاعتصاب قد سرت إلى عمال عنابر السكة الحديد ، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف عامل على حسب رواية[1] المقطم، وأربعة آلاف، على حسب[2] رواية اللواء . وقد بدأوا الاعتصاب صباح ١٨ـ ١٠ ـ ١٩١٠، ومنعوا خروج القطارات . أما سبب اعتصابهم فإنهم كانوا يشكون من المستر بكت ، وكيل كبير المهندسين ، وقالوا إنه يضطهدهم ويسىء معاملتهم ، ويكثر من توقيع الجزاءات عليهم . وطالبوا بتحسين أجورهم ، وإنشاء مدرسة خاصة لتعليم أولادهم ، وأن يتولى طبيب المصلحة علاجهم من الجروح الخفيفة التى تصيبهم فى أوقات العمل ، وأن يسمح لهم بالسفر بالمجان مع عائلاتهم .

وقد توجه مدير مصلحة السكة الحديد المستر ماكولى إلى العنابر، وحاول إقناع العمال بالعدول عن الاعتصاب ، واعدا إياهم بالنظر فى مطالبهم ، فوافق قليلون ، أما الأغلبية فرفضت أن تنهى الاعتصاب. وحينئذ هجم عليهم الفرسان شاهرين السيوف ، وأطلق الرصاص للإرهاب. واشتبك العمال مع رجال الشرطة فى معركة حامية ، استخدموا فيها الأحجار والأخشاب وقطع الحديد . وحضر وكيل المحافظ والحكمدار ، والمعركة مازالت دائرة . وأخيرا تمكن رجال الشرطة من تشتيت شمل العمال ، وقبضوا على زعمائهم وزجوا بهم فى السجن ،

---

(١) المقطم فى ١٨ ؛ ١٩ ـ ١٠ ـ ١٩١٠ .
(٢) اللواء فى التاريخ المذكور .

تمهيدا للتحقيق معهم وتقديمهم للمحاكمة . وبلغ عدد الجرحى من رجال الشرطة ٣٠ ، ومن الأهالى ٢٥ ، والعمال ٥٠ ، وأصيب مدير السكة الحديد ومدير الإدارة ووكيل المحافظ بحجارة فى ظهورهم ورءوسهم . وحطم العمال سيارة مستربكت، وأتلفوا عربة لإطفاء الحريق .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم المذكور هدأت الأحوال ، وعاد ثلثا العمال إلى عملهم ، وسارت القطارات على جارى عادتها .

وقد علقت صحيفة اللواء على هذه الحركة بقولها « فى إمكاننا أن نقول إن العاصمة لم تشهد منذ دخول الإنجليز إلى مصر حتى اليوم حادثة كتلك الحادثة ، أظهر البوليس فيها من الشدة والخشونة والقسوة ما أظهره فى هذه » . وقال صادق[٢] عنبر « إنه ـ أى هذا الاعتصاب ـ خير درس لحكامنا ، يوقفهم على تطور فكر المصرى ، ويظهره لهم بثوبه الجديد ، ثوب العليم بمصلحته ، الحريص عليها ، المتفانى فى المطالبة بها . وبتعبير آخر إننا قد رأينا اليوم ـ بفضل التصرف الشديد ـ مظهرا من مظاهر الاشتراكية ، لا يبعد أن يصير هلاله على توالى الأيام بدرا كاملا » .

* * *

وفى أول نوفمبر[٣] سنة ١٩١٠ اعتصب عمال الصيانة فى شركة الترام ، وكذلك عمال محطة توليد الكهرباء التابعة للشركة المذكورة . وكانت مطالبهم تنحصر فى تخفيض ساعات العمل إلى ثمان فى الصيف ، وتسع فى الشتاء . وكانوا

(١ ، ٢) اللواء فى ١٩ — ١٠ ، ٢٢ ـ ١٠ — ١٩١٠ .
(٣) اللواء فى ١ — ١١ — ١٩١٠ .

يعملون من السادسة صباحا إلى السادسة مساء . وعدم فصل أى عامل إلا لسبب معقول . وتنظيم الإجازات المرضية والاعتيادية .

ثم عادوا إلى العمل بعد أن وعدهم المدير بالنظر فى مطالبهم ، ولكن الشركة فصلت عددا منهم ، ولم تحقق لهم أى مطلب .

* * *

وفى ٣٠ - ٧ - ١٩١١ عاد[1] عمال الترام إلى الاعتصاب ، وامتنعت الشركة عن صرف مرتبات المعتصبين ، فأخذ بعضهم يطوف بالمقاهى والمحلات التجارية والمصالح الحكومية ، وأمامهم الموسيقى ولوحة كتب عليها « إن العمال المعتصبين يطلبون من الجمهور مد يد المساعدة إليهم » . فأقبل كثير من الناس على مساعدتهم .

وفى اليوم التالى عزمت الشركة على إخراج قطارات الترام من المخازن ، مستعينة بالحكومة . فتمكن رجال الشرطة من إخراج بعض القطارات من مخزن شبرا ، وسارت إلى العباسية فى حراسة شديدة . وكان العمال فى مخزن العباسية قد وضعوا الحواجز على الخطوط الحديدية وجلسوا عليها ليمنعوا خروج القطارات . فاصطف الجنود المشاة والفرسان على الجانبين . ووصل مدير الشركة ومعه بعض كبار مساعديه . وتقدم رجال الشرطة يطلبون من المعتصبين إزالة الحواجز ، فرفض العمال ذلك بإصرار ، وهجموا على مأمور قسم الوايلى ، وعلى غيره من كبار الضباط . فأمر وكيل الحكمدار رجال الشرطة بالهجوم على المعتصبين ، فهجموا شاهرين السيوف ، واجتمع عدد عظيم من الأهالى . وقد انجلت المعركة عن ٢١ جريحا ، منهم أربعة من رجال الشرطة ، وجرح كثيرون جراحات

---

(١) المقطم فى ١ ، ٣ - ٨ - ١٩١١ .

خفيفة . ثم خرجت بعد ذلك عدة قطارات وسارت فى حراسة الشرطة ، فهجم عليها بعض المتعصبين ، ورشقوها بالحجارة ، وضربوا الركاب والعمال الذين قبلوا العودة إلى عملهم . وهكذا سادت الفوضى واختل الأمن فى جهة باب الحديد وأبى العلا وقصر النيل . وتركت مركبات كثيرة فى الشوارع طول الليل. واشتد زحام الأهالى بجهة باب الحديد ، فانسدت الطرق ، وتعذر المرور، ثم أقبلت عربة إطفاء فسلطت مياهها على الأهالى فتفرقوا .

وكانت حركات العمال هذه إرهاصا بما سوف يحدث خلال ثورة سنة ١٩١٩ ، فعمال الترام ، وعمال عنابر السكة الحديد كانوا أول من لبى داعى الجهاد .

* * *

وقد ظهرت فكرة إنشاء حزب اشتراكى فى مارس ١٩٠٨ . قالت صحيفة الإقدام (٢٠ ـ ٣ ـ ١٩٠٨) تحت عنوان « حزب الاشتراكيين » «علمنا أن قد تأسس هذا الحزب برياسة الدكتور شبلى شميل ، وعضوية كل من الدكتور شدودى،وسامى أفندى جريديني، وتوفيق حبيب، ونجيب أفندى ابكاريوس. وغرضه كبح جماح الغنى العاتى ليكف عن دوس الفقير بقدميه » ولكن هذا الحزب لم يظهر إلى الوجود ، وإن كان بعض الكتاب (سلامة موسى، وشبلى شميل ، ونقولا عبد الأحد) أخذوا يكتبون المقالات الطويلة عن الاشتراكية وما حققته للعمال فى أوربا . فقد جاء فى مقال بتوقيع (سلامة موسى اشتراكى) « ... فانجلترا وألمانيا أرقى أمم العالم اليوم ، لأنهما أكثر الأمم اشتراكية .

---

(١) المقطم فى ٢٠ ـ ١٠ ـ ١٩١٠

والطريقة لتحقيق الاشتراكية هى أولا : تنظيم الاعتصابات بين العمال حتى تزيد أجورهم . وثانيا : حث الأمة على إنابة أعضاء اشتراكيين فى البرلمانات والمجالس المحلية ، يملكون ناصية التشريع فينصفون العامل . ولنقل هنا كلمة عن موافقة الاشتراكية أو غير موافقتها لنا . فمن المعروف الآن أن نصف ثروة الأمة فى أيدى الأجانب ، لأن حضرات وطنيينا ـ أصحاب الشعور الحى ـ فضلوا محاولة طرد الإنجليز بنظم القوافى والسجع ، على أن ينبهونا إلى كيفية سقوط ثروتنا فى أيدى الأجانب . فضلوا التصويت كالفونوغراف بكلمة الجلاء ، على أن يعلمونا كيفية إنشاء لوكانده » ثم ختم مقاله هكذا « يجب أن نذكر أن الرشوة والاشتراكية متضادتان. فإذا كانت الاشتراكية نعمة فى انجلترا ، فذلك لأن الرشوة معدومة ، لا تصور لوجودها هناك . وهى النقمة كل النقمة إذا تسربت إليها الرشوة . لهذا يجب قبل الكلام عن الاشتراكية فى مصر ، تطهير الإدارة المصرية من هذا الداء . وفى الختام أقترح — كتمهيد للاشتراكية — تأليف جمعية لمقاومة الرشوة » .

وفى هذا المقال من الاضطراب والتخليط والمغالطة ما لا يخفى . فالأجانب كانوا يعيشون فى حماية الاحتلال ، وفى ظله تمتعوا بامتيازات مكنتهم من السلب والنهب . وكيف تقوم الاشتراكية مع وجود الاحتلال الذى كان كان يحمى المستغلين والمرتشين ؟ وكيف تكون انجلترا اشتراكية فى سنة ١٩١٠ مع أن القطاع الخاص كان مسيطرا عليها ؟ .

* * *

ولم يكن لـكلمة « الاشتراكية » مفهوم محدد فى الأذهان ، لأن الـكتاب المصريين أطلقوا هـذا الاسم فى مقابل كلمة « سوشيالزم » وهى ترجمة غير صحيحة . قال شبلى شميل « إن[1] هـذا الخطأ فى التعريف ؛ جر معه خطأ أعظم فى الفهم . والصواب : الاجتماعية ، من الاجتماع ، أى العمران . وأصحابها : الاجتماعيون ، ولـكننا جاريناهم هنـا عمـلا بالمثل القـائل : خطأ مشهور خـير من صواب مهجور » . ولـكن كلمة « الاجتماعية » لم يكتب لهـا البقاء ، وحلت محلها كلمة « الشيوعية » فى العشرينات .

والخطأ فى الفهم أدى إلى نفور المصريين من الاشتراكية . قال شبلى شميل « كنت[2] أفهم قبل اليوم أن الاشتراكية فى نظر خصومها مطلب يتعذر نواله ، فإذا هى فوق ذلك وصمة تعرض صاحبها لأقبح المظان ، ليس فى نظر الجمهور فقط ، بل فى نظر الخاصة أيضا » . والاشتراكية التى دافع عنهـا شبلى شميل ودعا إليها هى الاجتماعية أى الشيوعية .

إن الـكتابات التى عرضت للاشتراكية لم يكن فيها وضوح ، فلم نجد كاتبا دعا إلى تحديد الملـكية الزراعية مثلا ، أو إلغائها . ولعلك لاحظت أن أعضاء الحزب الاشتراكى الذين ذكرتهم صحيفة الإقدام ، والـكتاب الذين حرروا المقالات عن الاشتراكية ، لم يكونوا على دين الأغلبية ، ولا حتى على دين الأقلية ، بل عرف عنهم الإلحاد ، لذلك كان يكفى أن ينهض عالم مسلم مثل محمـد فريد وجدى مسفها آراءهم ، قائلا إن الأخذ بتعاليم

---

(١) المؤيد فى ١٣ ـ ١ ـ ١٩٠٨

(٢) المؤيد فى ٢٦ ـ ٨ ـ ١٩٠٧

الإسلام ، وجمع الزكاة ووضعها فى موضعها الذى أمر الله به ، يغنى عن كل نظام آخر . وفى هذا المعنى يقول أحمد شوقى من قصيدة نظمها سنة ١٩١٠ .

الإشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء

والاشتراكيون الذين عناهم أحمد شوقى هم الشيوعيون المتطرفون، الذين لايريدون تحقيق مبادئهم بالتدرج، وإنما دفعة واحدة ، وفى ظل الثورة الحمراء . وهو يعيب عليهم هذا . أما الاشتراكية كما نفهمها نحن الآن فى نظامنا الحالى فليس فيها طفرة ، ولا مغالاة ، ولا هى مما يقال فيها « وأخف من بعض الدواء الداء » .

الترام والحركة الوطنية

ساعد وجود الترام ـ كما ذكرنا ـ على تكوين رأى عام بين سكان العاصمة كما ساعد على اتساع حركة إنشاء المدارس والإقبال عليها . وكان الطلبة ومازالوا هم عصب الحركة الوطنية . ففى[1] ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٦ اجتمع طلبة مدرسة الحقوق فى حديقة الأزبكية للمشاورة فى أمر اللائحة الجديدة التى يراد تطبيقها عليهم . وهى تقضى برفع رسوم القيد من خمسة عشر جنيها إلى عشرين فى السنة . وفصل الطالب الذى يرسب سنتين متواليتين .

وقد أحضر الطلبة القرآن والإنجيل والتوراة . وأقسم المسلمون والمسيحيون واليهود عليها بأن يكونوا يدا واحدة . فلا يرجعون عن عزمهم حتى ينالوا مطالبهم العادلة . وأن يساعد الأغنياء منهم الفقراء إلى أن يظفروا ببغيتهم .

وانضم إليهم طلبة مدرسة الصنايع والفنون ، وكانوا قد رفعوا إلى ناظرهم بعض مطالب تتعلق بنظام الدراسة والامتحانات ، فلم توافق نظارة المعارف عليها ، كما انضم طلبة مدرسة الزراعة تضامنا مع طلبة الحقوق .

كتب مصطفى كامل معلقا على حركة اعتصاب الطلبة تحت عنوان « مسألة الطلبة[2] » : « قضت البلاد أسبوعا كاملا وهى شديدة الاهتمام بمسألة الطلبة ، لأنها مسألة حيوية كبرى ، تهم الفقير والغنى ، والمتعلم والجاهل على السواء . وقد دل هذا الاهتمام العظيم على أن أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية

---

(١) اللواء فى ٢٨ ـ ٢ ، ٣ ـ ٣ ـ ١٩٠٦ :

فى مقدمة أمورها الحيوية . وأن لناشئتها المحل الأول فى عنايتها . وأن رجال الغد هم موضع الآمال كلها » . إلى أن قال « أظهر الاعتصاب أن رجال الغد متضامنون متكاتفون ، عارفون لمعنى الاتحاد والاتفاق ، غيورون على حقوقهم محبون للعدالة ، متشربون بروح الاستقلال . فإن لم يكن لاعتصاب الطلبة من فائدة إلا إظهار هذه النتائج العظيمة لكفى . وإنه لا يسعنا إلا شكر أولئك الطلبة الأمجاد الذين اهتزت أركان القطر لحركتهم ، وعرف اليائسون أن اليوم غير الأمس . وأن الطبقة المتنورة المعقودة آمال الأمة عليها ذات ضمير حى ، وأن للغيورين من المصريين الحق فى أن يبنوا قصور الآمال عالية ، ويقولوا بأعلى أصواتهم : إن الغد المنتظر قادم ، وبيمينه راية السعادة والخير لهذا الشعب العزيز » .

ولم تبق صحيفة إلا اهتمت بهذا الاعتصاب ، تبعا لاهتمام الأمة به . قالت صحيفة[1] الأهرام « رأينا جمهورا عظيما من تلامذة المدارس الثانوية فى حديقة الأزبكية ، وبينهم الخطباء يتكلمون ويحثون رفاقهم على تقديم مطالبهم لنظار مدارسهم ، يشكون فيها من نظام الامتحانات . وقد قال الخطباء كلاما مرا عن سكرتير المعارف ، وعن السياسة التى اتبعت فى قتل روح التعليم ومناهضته ، وانتهوا إلى أن يكتبوا مطالبهم ويقدموها لنظار مدارسهم » .

وقالت الجوائب[2] المصرية « ولا ريب أن روح التضامن التى سرت بين الطلبة روح شريفة حميدة ، يحمد أصحابها عليها ويشكرون . فإن فقد هذه الروح من هذه البلاد كان من أشد العوامل التى جعلتها فى موقفها السياسى الحالى .

(٢،١) نقلا عن اللواء فى ٣ ـ ٣ ـ ١٩٦٠ .

ولا حاجة بنا إلى تعداد الحوادث التى تؤيد قولنا ، فإن من يراجع تاريخ مصر فى السنوات الخمس والعشرين الأخيرة يتضح له صدق قولنا لأول وهلة . والجميع يعلمون أن الذين لا يوافقهم استقلال هذه البلاد قد دأبوا فى قتل هذه الروح وملاشاتها من صدور أبناء البلاد ، سواء كانوا فى المناصب الأميرية ، أو فى الدوائر الخصوصية » .

وفى اليوم الثالث من شهر مارس اجتمع الطلبة للتشاور فى الأمر ، وكان كرومر قد أعلن أنه متى عاد الطلبة إلى مدارسهم فإن الحكومة سوف تنظر فى مطالبهم بكل اهتمام . وقد توجه[1] إلى مكان اجتماع الطلبة أحمد لطفى السيد مع بعض أصدقائه ، وحثوهم على الانتظام فى سلك الدراسة ، وعدم الاستماع إلى تهييج الحزب الوطنى والثقة بوعود الإنجليز .

وبناء على تصريح كرومر ، قرر الطلبة إنهاء الاعتصاب والعودة إلى الدراسة ، وقد أجيبوا إلى مطالبهم .

والحقيقة إن حركة الطلبة هذه كانت حركة وطنية تختفى وراء مطالب معينة . وكان قصد المحتلين من وضع لوائح مشددة هو صرف الشبان عن التعليم العالى .

ومن هذا التاريخ بدأ نشاط الطلبة السياسى يزداد يوما بعد يوم . فإذا سمعوا بأن الخديو ذاهب لاحتفال رسمى ، تجمعوا من تلقاء أنفسهم ووقفوا فى طريقه هاتفين بطلب الدستور . ثم أبرقوا إليه بذلك . وكانت هذه المظاهرات تزعج سلطات الاحتلال . قال غورست فى تقريره عن سنة ١٩٠٩ « ... وما دامت

---

(١) المقطم فى ٣ — ٣ — ١٩٠٦ .

المدارس نقطة الدائرة التى تدور حولها مساعى المضللين السياسيين ، فلا مناص من إبطاء تعليم الشبان المصريين » . ومن طلبة المدارس العليا تألفت جمعية سياسية كان من أعضائها إبراهيم الوردانى .

وعقب مقتل بطرس غالى فى ٢٠ ـ ٢ ـ ١٩١٠ شدد المحتلون النكير على الطلبة . فصدر قرار فى ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩١٠[1] يقضى بمعاقبة التلميذ بالرفت النهائى إذا سلك مسلكا معيبا ، كاشتراكه فى المظاهرات داخل المدرسة أو خارجها . أو أعطى أخبارا للجرائد أو أبدى ملاحظات بواسطتها ، أو اشتغل بمكاتبتها أو كان وكيلا لها . وانتشر الجواسيس فى المدارس العليا والثانوية لمراقبة سلوك الطلبة والتبليغ عنهم . هذا بعض ما حدث فى أوساط الطلبة .

* * *

أما بين عامة الشعب فإن روح الوطنية ـ بعد إنشاء الترام ـ أخذت تنمو نموا هائلا . وذلك بفضل انتشار الصحف والمجلات التى كانت تحفز الهمم ، وتعمل على تقوية العزائم . ومع أن الترام كان دليلا على دخول العاصمة فى أدوار الحضارة والمدنية ، إلا أن إنشاءه بوساطة شركة أجنبية كان موضع امتعاض الكثيرين . قالت صحيفة الشرق (١٠ ـ ٨ ـ ١٨٩٦) « ... ونحن لم نزل نردد ما قلناه فى هذا الصدد ، وهو أن سير المركبات الكهربائية فى عاصمة القطر المصرى ، وإن كان يدل من الجهة الواحدة على دخولنا فى أدوار الحضارة ، وولوجنا أبواب المدنية ، واقتدائنا بغيرنا من جماعة المتمدنين ، حتى أصبحت

---

(١) المقطم فى ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩١٠

عاصمة بلادنا لا تقل فى الفخامة والأبهة ، ووجود ممدات الراحة عن أشهر العواصم الأوربية ، إلا أن ذلك يظهر من الجهة الأخرى مقدار تهاملنا وتساهلنا فى القيام بمثل هذه المشروعات من تلقاء أنفسنا ، والاعتماد على الأجانب فى كل أعمالنا وأحوالنا . فتسيير مركبات الترامواى فى مصر بواسطة شركة أجنبية هو عنوان عار وعلامة خزى تلحق أغنياء هذه البلاد ووجهاءها ، وتذكرهم بسوء تدبيرهم ، وشدة تقصيرهم ، فعسى أن يكون فى ذلك عبرة وتذكرة لأولى الألباب فى مستقبل الأيام » .

لم يكن فى العاصمة قبل إنشاء الترام من الشركات الأجنبية سوى شركة المياه ، وقد مر بنا أن الناس لم يكونوا كلهم قادرين على الحصول على المياه منها . فاستغنوا عنها بمياه الآبار ومياه النيل . وشركة غاز الاستصباح وكانت تتولى إضاءة الشوارع الكبرى وبيوت الأغنياء . فلما أنشئت شركة الترام وحققت أرباحا لم تكن فى الحسبان ، حتى ارتفع سعر السهم(١) فيها من عشرين جنيها إلى ستين وسبعين ، اندفعت عناصر أجنبية أخرى لاستثمار أموالها فى القاهرة . ففى نهاية سنة ١٨٩٦ تأسست شركة بلجيكية للإضاءة الكهربائية . وفى ديسمبر من العام المذكور حصلت شركة إنجليزية على امتياز للتنقيب عن البترول . كما حصلت شركة إنجليزية أخرى على حق احتكار بيع الملح فى الداخل والخارج . وتألفت الشركات الإنجليزية الآتية : شركة الفنادق ، وشركة البواخر

---

(١) الأخبار فى ٣٠ ـ ٧ ـ ١٨٩٧ .

الفابريقات والدائرة السنية ، والبنك الأهلى ، وكان الإنجليز يمتلكون معظم أسهمه ويسيطرون عليه . هذا غير مشروعات النيل التى استأثر بها رجال المال الإنجليز مثل خزان أسوان الذى بدىء فى إنشائه سنة ١٨٩٨ بأموال غنى انجليزى اسمه إيرنست كاسل . وكذلك جميع القناطر التى شيدت على النيل والترع الكبرى . أما البنوك والشركات الأجنبية الأخرى فأكثر من أن تحصى . وكان يعين بهذه المنشآت أبناء الأجانب نظير مرتبات طيبة . فإذا وصل مصرى بعد جهد جهيد إلى وظيفة فى منشأة أجنبية فلا يمكن أن يرقى إلى مستوى الأجنبى فى المرتب .

وحينما طلب أعضاء الجمعية (١) العمومية فى جلسة ٣ مارس سنة ١٩٠٨ أن يكون تدريس المواد فى المدارس باللغة العربية ، عارض سعد زغلول ناظر المعارف إذ ذاك قائلا : إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية ، وشرعنا فيه فعلا فإننا نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى ، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا فى الجمرك والبوستة والمحاكم المختلطة ، والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة ، والتى يقتضى نظامها وجود كثير من الموظفين العارفين بإحدى اللغات الأجنبية حق المعرفة ، ولا أن يستخدموا فى بنك أو مصرف ، ولا أن يشتغلوا فى شركة من الشركات الأجنبية التى كثر تأسيسها الآن فى بلادنا ، ولا يكونوا محامين أمام المحاكم المختلطة ، ولا مترجمين ، ولا غير ذلك من كل ما يحتاج فيه إلى البراعة فى لغة أجنبية ، وهو كثير جداً فى بلادنا . »

---

(١) المؤيد فى ٣ - ٣ - ١٩٠٧

واستأثر الإنجليز بجميع الوظائف الحكومية الكبرى . ومنعوا قيام الصناعة فى مصر . ثم جاءت اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ ، وبمقتضاها أصبح الحكم فى القطر الشقيق للإنجليز ، مع أن استرداده كان بأموال مصر ودماء بنيها . وأرغموا الحكومة المصرية على دفع إعانة سنوية لحكومة السودان . وقد بلغت جملة ما دفعته مصر منذ الفتح إلى سنة ١٩٠٩ نحو عشرة ملايين جنيه كما زادت نفقات جيش الاحتلال من ٨٢٥ر٨٤ جنيها سنة ١٩٠٤ ، إلى ٢٠٥ر١٤٦ ج . م سنة ١٩١٠ .

فأخذ الشعب يوازن بين حرمانه من خيرات بلاده ، واستئثار الأجانب بهذه الخيرات . فازداد الشعور الوطنى قوة واندفاعا إلى مقاومة الاحتلال الذى ساعد الأجانب على بلوغ درجة كبرى من الجاه والثراء ، والنفوذ والسلطان ، وفتح أبواب البلاد أمامهم ليدخلوها وينتزعوا من أهلها القوت الضرورى . فكثر الحديث عن ضرورة قيام حكم نيابى سليم ، فما كان من الإنجليز إلا أنهم زادوا جيش الاحتلال ، ثم انتهزوا فرصة حادثة دنشواى ، واستصدروا فيها الأحكام المشهورة ، اعتقادا منهم أن هذه الأحكام من شأنها أن ترهب الشعب فيخضع ويستكين ، ولكن أملهم لم يتحقق بالطبع ، وظل الشعب ملتفا حول مصطفى كامل . وقد تجلى الشعور الوطنى يوم وفاة الزعيم الشاب . قالت صحيفة المؤيد (١٦ - ٢ - ١٩٠٨) تحت عنوان « معنى المظاهرة » « رأى سكان مصر من أهليها ونزلائها فى هذه الأيام مظاهرة عظمى ، لم يروا على شاكلتها فى مثل موضوعها من قبل . رأوا عشرات الألوف أو مئاتها تشيع جنازة المرحوم مصطفى كامل باشا ، وأكثرهم يعج بالبكاء حول سريره ، عجيج الثاكلات . رأوا الناشئة المصرية ممثلة فى خير عناصرها تتبادل فرقة منها حمل

النعش ، وتتقدم الفرق الأخرى بأعلامها إلى القبر كأنها جيش يجود بنفسه في ساحة القتال » .

ولم تقف الحركة الوطنية عند حدود القاهرة ، بل تجاوزتها إلى جميع جهات القطر . قالت صحيفة المؤيد (١٦ ـ ٢ ـ ١٩٠٨) « وجاءنا من الأقصر : أسفت الأمة المصرية ، وحق لها الأسف ، وتضاعفت الأحزان ، وهلعت القلوب ، واندهشت الألباب ، حيث رزئت بموت زعيمها الأكبر ، الذى وقع خبر نعيه على الأفئدة كالصواعق المحرقة ، حتى كادت تتلاشى أسفا وحسرة . أمطر الله على جدثه سحائب رحمته ورضوانه ، وعوض الصحافة المصرية فيه خيرا ، ورزق آله والأمة الصبر والسلوان »

« إمضاءات : مصطفى إبراهيم القاضى ، محمد موسى وكيل المؤيد ، حنفى مكاتب اللواء »

* * *

وحينما كان يبدو من عباس ميله إلى مسالمة المحتلين ، كانت تصوب إليه سهام النقد . مثال ذلك ما جاء فى مجلة حمارة منيتى (٢٥ ـ ٥ ـ ١٩٠٠) « طلبت المعية السنية ٨٠٠ طن من الفحم الحجرى ليخت المحروسة الذى سيقل الجناب الأكرم إلى لوندره . ومعلوم أن ثمن الطن الواحد يزيد عن الثلاثة جنيهات ، فيكون مجموع ما تأكله النار وحدها فى هذا السفر السعيد ٢٥٠٠ ج ، فلا حول ، ولا »

وقالت المجلة المذكورة فى (٢٣ ـ ٤ ـ ١٩٠٠) « سيسافر الجناب العالى إلى بلاد الإنجليز فى هذين اليومين ، بعد أن كانت أنواره محجوبة عنهم وعن

جلالة ملكتهم بحكم الوطنية . والوطنية ـ كما تعلمون ـ لها مع الإنسان دورتان : دورة نارية ، وأخرى ترابية . ومتى كانت وطنية المرء فى دورتها الترابية ترونه يفعل مالا يفعله وهى فى دورتها النارية . وإليكم الفرق بين هذه وتلك : إنكم تعلمون ما كان يفعله سموه فى الأمس من التباغض والتنافر مع هؤلاء الإنجليز ، ومايفعله اليوم معهم من التبجيل والتعزيز وكل ذلك لايحط من منزلة سموه التى بلغت أرفع شأو فى قلوب المصريين . والمصريون لا يزالون متعشمين فى وجهه خيرا . أما نحن فلا نتعشم فى هذا الخير إلا إذا عدل سموه عن زيارة بلاد الغير . »

* * *

وكثر الكلام عن الوسائل التى تؤدى إلى النهوض بالوطن . فقالوا [1] إن القوة كل القوة فى المال . ولا حياة للأمة بغير مال ، ولا وجود ، ولا استقلال . ومعلوم أن ثروة كل دولة من ثروة أمتها ، وثروة الأمة من ثروة الأفراد . فإذا كان الأفراد أغنياء كانت الأمة غنية . وإذا كانت الأمة غنية كانت الدولة قادرة على حفظ ذمارها ، وصد الأعداء عنها . فإذا أعنت صانعا على إحياء صناعته ، أو تاجراً على توسيع تجارته ، أو زارعا على إتقان زراعته ، فقد أحسنت إلى ذلك التاجر والصانع والزارع أولا ، وزدت فى ثروة بلادك ثانيا . فالصانع والتاجر والزارع يجب أن يكون لهم المقام الأول فى الهيئة الاجتماعية » وهذا معناه مقاطعة الأجانب وتشجيع الوطنيين .

* * *

(١) المنار ١٢ ـ ٦ ـ ١٨٩٨

وقد كثر الشعر الوطنى ، وأفسحت الصحف والمجـــلات صدرها لنشره . مثال ذلك قول أحمـد شوقى ، من قصيدة نظمهـا حينما غادر كرومر البلاد :

اليوم أخلفت الوعود حكومة   كنا نظن وعودها الإنجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه   مصرا فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمهـا وهدت ركنها   وأضاعت استقلالها المأمولا

الترام والحركة الفنية

حينما أتاح الترام لسكان العاصمة فرصة السهر خارج المنازل إلى ساعة متأخرة من الليل ، ولم يكن هذا مألوفا من قبل استطاع الناس وبخاصة الشبان أن يتوجهوا إلى المسارح وصالات الرقص ، ودور الخيالة .

ومن المسارح التي عرفت في ذلك الوقت ، أي منذ سنة ١٨٩٦ إلى نهاية القرن : المسرح[1] العربي لأبي خليل القباني ، بشارع عبد العزيز ، في موضع سينما أوليمبيا حاليا . ودار التمثيل العربي لسلامه حجازي . بشارع الباب البحري لحديقة الأزبكية . ومسرح مصر العربي لإسكندر فرح والمسرح العباسي ، وكلاهما بشارع جلال .

وفي سنة ١٨٩٦ جاءت من دمشق فرقة مسرحية برياسة نقولا مصابني لإحياء بعض الليالي . ومثلت فصولا من روايات مضحكة في المسرح العربي ، منها فصل الأخ الخائن ، وفصل الملك ، وفصلا من رواية القهوة . ودار الرقص الدمشقي على نغمات العود والدبكة .

وألف ميخائيل جرجس فرقة السرور في نوفمبر سنة ١٨٩٦ ، ومثل مسرحية « عواقب الأمور » وقام بأم أدوارها الشيخ درويش الإسكندراني « سيد درويش » .

وفي سنة ١٨٩٨ ألف سليمان قرداحي فرقة جديدة ، وضم إليه المطربة المشهورة ملك سرور ، والممثلة البارعة لبيبه مللي . وهكذا توالى ظهور الفرق التمثيلية .

---

(١) جاء في صحيفة المؤيد (١٩ ــ ٥ ــ ١٩٠٠) « شبت النار شبوبا هائلا في الساعة العاشرة وربع من مساء أمس في تياترو الشيخ أبي خليل القباني المجاور لسوق الخضار وساعدت الريح الشديدة وقتئذ على اشتعالها ، حتى رجفت القلوب خيفة من شرهوالها ، وخشي الناس جميعا زيادة امتدادها غير أن رجال المطافي أخذوا يبذلون قصارى جهدهم في إطفاء الحريق ، حتى أطفأوه في نصف الليل ، بعد أن دمر التياترو بأجمه وبعض القهاوي والحوانيت المجاورة وبلغت الخسائر ٢٤٢٠ جنيها ، وقيد الحادث قضاء وقدرا . »

وأقبل بعض الأدباء على الكتابة للمسرح ، سواء بالترجمة ، أو بتحويل القصص إلى مسرحيات ، أو بالتأليف .

فمن المسرحيات التى ألفت سنة ١٨٩٨ : العنا والقهر فى دخول نابليون مصر ، لعبد الله فكرى . وغانية الأندلس لخليل كامل . وعواقب الطيش لحليم حلمى . والفتاة الشركسية لزكريا نامق .

ومما ألف سنة ١٨٩٩ : لا أتزوج ولو شنقونى ، مسرحية هزلية لمؤلف مجهول . وعدم الرضا و نفاذ القضا ، لعبد اللطيف شكرى .

ومن المسرحيات التى عربت فى الفترة من سنة ١٨٩٧ ـ ١٩٠٢ .

المركيزه بلانش ، عربها عن الفرنسية بديع عزوز . وردة ، تعريب محمد مسعود . الخيانة والوفاء ، عربها خليل نقاش . المهندس المصرى تعريب ميخائيل فرج . شرك الهوى ، عربها عن الإنجليزية يعقوب منصور المنياوى . غرام الملوك تعريب ديمترى نقولا . ثارات العرب ، عربها عن الفرنسية نجيب الحداد .

وبعد أن مدت شركة الترام خط الساحل ، بدأت بعض المسارح تنتقل صيفا إلى روض الفرج .

٭ ٭ ٭

وظهر فن النقد المسرحى ، وأخذ ينضج على مر الأيام نتيجة للتقدم الثقافى ويبدو أن إقبال الجمهور على ارتياد المسارح عقب إنشاء الترام ؛ جعل الفرق التمثيلية تتنافس فى كسب المتفرجين دون أن يكون لديها استعداد سليم . ودفعها التنافس إلى اختيار مسرحيات هزلية مجونية ، تدور كلها حول الحب ومغامرات العشاق ، وتنتهى برقص مبتذل تقوم به راقصات مومسات ، اتخذن هذا الفن

وسيلة لإشباع شهواتهن ، وابتزاز أموال الشبان الأغرار . قالت صحيفة الإخلاص (١٧ - ٧ - ١٨٩٧) : « ... ومما زاد الطين بلة أن بعض أصحاب أجواق التمثيل العربي لا يميزون بين الطيب والخبيث ، ولا يدركون سر واجبات فنهم الشريف فبينما هم يمثلون فصلا أدبيا يعلمون فيه واجبات المرء فى هذه الدنيا ، ويظهرون به العيوب والنقائص التى يجب تجنبها . ويمدحون محاسن الفضائل والكمالات ويحضون على اتباعها ، نراهم قد أتوا فى مرسح التمثيل التهذيبى بما تخجل منه الآداب ، من رقص مبتذل ، ومناظر تشمئز منها النفوس الأبية ، ويدعون أن ذلك تفكهة للمتفرجين . فهم بذلك يدسون السم فى الدسم ، لا يفرقون بين مراسح التهذيب ، ومحلات الرذائل . وإن حجنا أحد أن التمثيل الأوربى قد يعقبه فصل رقص ، فأجيبه إن عوائدنا الشرقية تخالف عوائدهم . وإن الرقص المصرى مبتذل ، ومنظره شنيع ، لا يستحسنه إلا من ضرب الجهل أطنابه على قمة رأسه فأعماه ، سيما وأن الراقصات المصريات هن من المومسات اللواتى لم يتخذن هذا الفن إلا قضاء لشهواتهن وإيقاع الشبان الجهلاء فى شباكهن ليسلبن مالهم » .

وقد دافع إسكندر فرح عن الروايات المجونية بمقال[1] جاء فيه . « ..وأما اعتراض البعض على أن تلك الروايات كلها غرامية تلحينية ، وبعضها مجونية خالية من الفائدة المطلوبة ، فلا محل له ، لأن أكثرها معربة عن الغربيين ، ولا يزال غالبها يمثل حتى الآن. وفضلا عن أن جلها منطو تحته حكم ومواعظ بليغة ، فإنها هى الروايات التى مهد بها الغربيون للشعب سبيل الوصول إلى الدرجة اللائقة » .

وقال بعض الناقدين إن معظم المسرحيات التى تمثل بعيدة كل البعد عن تصوير البيئة المصرية . كتب فؤاد سليم فى المؤيد (٦ - ٣ - ١٩٠٦) مقالا جاء

---

(١) المؤيد فى ٢٩ - ١٠ - ١٩٠٥ .

فيه « أما القول بأننا معشر المصريين فى حاجة عظمى إلى روايات عصرية مصرية أو عربية ، تمثل عوائدنا وأخلاقنا ، فهو قول لا نبخسه نصيبه من الصحة ، ولا ننكر أنه أكبر حجر فى أساس الإصلاح التمثيلى » .

والذى يهمنا أن نثبته فى هذا المقام هو :

١ ـ ظهور نشاط مسرحى كبير بعد وجود الترام .

٢ ـ ظهور النقد المسرحى ، واهتمام الصحف بنشر المقالات الضافية فى هذا الموضوع .

٣ ـ ظهور مسرحيات كثيرة .

وقد اتخذ التمثيل وسيلة لإذكاء الروح الوطنى ، والدعوة إلى جهاد المحتلين. فتنبهت سلطات الاحتلال إلى ذلك ، فصدرت « لائحة[1] التياترات » فى ١٩ ـ ٧ ـ ١٩١١ ، وضعت بمقتضاها المسارح تحت رقابة الشرطة « يخصص مكان موافق لضابط البوليس المنوط بالمراقبة وقت التمثيل » وخولت اللائحة لرجال الشرطة حق إغلاق المسرح إذا عرض فيه مايخالف النظام العام والآداب . وفى ذلك يقول[2] طه حسين :

أخذوا على الصحف الطريق وأرهقوا ... كتابها بالضيم والإذلال

وعدا على التمثيل من غلوائهم ... عاد فآذن ظله بزوال

نقموا على التمثيل نطق ممثل ... فيه بلفظة كامل وكمال

فاهتاج هائجهم عليه وأغلقوا ... أبوابه من غير ما إمهال

* * *

وكثرت صالات الغناء ، واشتهر من المغنين فى العصر الترامى : عبده الحامولى[3] ، وسلامة حجازى[4] ، ويوسف المنيلاوى ، وصالح عبد الحى ،

(١) المقطم فى ١٩ ـ ٧ ـ ١٩١١ (٢) مجلة الهداية ، عدد دسمبر سنة ١٩١٠

(٣) مات سنة ١٩٠١ (٤) مات سنة ١٩١٧ (٥) مات سنة ١٩١١

ومحمد عثمان ، وملك سرور ، وصالح العربى ، ومريم مراد . وبعد وجود الترام جاء إلى القاهرة شاب لم يكن معروفا من قبل ، وهو سيد درويش .

وألفت كتب كثيرة عن الغناء والتلحين ، نذكر منها : الموسيقى الشرقى لكامل الخلعى ، سنة ١٨٩٩ ـ نزهة الزمان ، يتضمن تلحين عبده الحامولى ومحمد عثمان ، سنة ١٩٠١ ـ مطرب الأكامل وتلحين الأفاضل ، لحسن فريد ، جمع فيه أحسن الأغانى العصرية وتوقيماتها ، سنة ١٩٠١ ـ الموسيقى والغناء ، لنقولا رزق شحانه ، شرح فيه القواعد الصوتية والقوانين والعلامات الموسيقية ، والأدوار الشجية الرائقة لتمرين الطلاب على الترتيل « التلحين » والموسيقى ، سنة ١٩٠١ ـ نيل الأرب فى موسيقى الإفرنج والعرب ، أحمد أمين الديك ، ضمنه كلاما عن الموسيقى والأصوات والعلامات الموسيقية ، ثم حلاه بالرسوم والأشكال التى تبين مقاصده ، سنة ١٩٠٢ ـ المغنى المصرى ، لمحمود حمدى البولاقى يتضمن كثيرا من الأدوار والألحان ، مع بيان نغماتها ، وشرح قواعد فن الموسيقى ، سنة ١٩٠٣ .

الترام والحركة الرياضية

نشطت الحركة الرياضية ، وتألفت فرق كثيرة فى المدارس الثانوية والابتدائية والصناعية ، إلى جانب فرق من طلبة المدرسة الحربية . وظهرت أندية رياضية لمختلف أنواع الرياضة . وتيسر إقامة حفلات تتبارى فيها الفرق المدرسية .

وقد جرت مباراة[1] بين المدرسة الخديوية والتوفيقية فى ١٨٩٧/١١/٢٧ وكانت الغلبة للتوفيقية . فلم يرق ذلك فى أعين طلبة الخديوية والمنتصرين لهم فاشتد الهرج واللجاج ، ونسبوا التحيز والمحاباة للحكم . وكان يعقوب أرتين باشا وكيل نظارة المعارف حاضرا ، فتدخل وصالح الفريقين . وابتدأت المباراة من جديد ، ففازت التوفيقية . وانتهى اللعب بما لم تحمد عقباه ، إذ انهال المغلوبون على الغالبين بالسب والشتم . وكان طلبة التوفيقية قد أعدوا مائدة شاى فرفض طلبة الخديوية أن يتناولوه ، وسخط ناظرهم مستر اليوت . وفى صباح اليوم التالى دعا الناظر المذكور أعضاء الفرقة وألقى عليهم خطبة خلاصتها : إنى أيها التلاميذ فى غاية الكدر والحنق من الأعمال المنافية للتربية والآداب التى ظهرت منكم أثناء اللعب ، وكانت الباعث على خجلى الشديد ، وكدرى العظيم .

فأولا : تطاولتم بالسب والشتم على رجل أحضرناه بصفة حكم بينكم وبين طلبة المدرسة التوفيقية ، وتهمتموه بالتحيز ضدكم ، مع أنه من أصحاب النزاهة والعدل ، ومع أن الغلب فى اللعب ليس عاراً ولا سبة .

---

(١) المؤيد فى ٢٨-١١-١٨٩٧

وثانيا : إنكم رفضتم شرب الشاى الذى قدمه لكم إخوانكم فى المدرسة التوفيقية ، بمثابة توثيق عرى المحبة والوداد . وكان هذا وذاك دليلين على سوء التربية ، وكفى بهما عاراً وموجبا لكدرى وخجلى . وفى ٢١ يناير سنة ١٨٩٨ جرى احتفال رياضى عظيم ، تبارى فيه تلاميذ المدارس الأميرية فى سباق المسافات القصيرة والطويلة ، وشد الحبل ، وحمل الأثقال ، والقفز وهم داخل أكياس ، واقتحام الحواجز وغير ذلك .

ويبدو أن المحتلين أرادوا أن يبعدوا الطلبة عن الاشتغال بالسياسة ، فلم يجدوا شيئا أنفع فى هذا المقام من توجيه اهتمام الشباب المتعلم إلى الألعاب الرياضية وإقامة الحفلات ليتبارى فيها التلاميذ ، وبذلك تنشأ أحزاب رياضية ، حزب يتعصب لهذا الفريق ، وحزب يتعصب لذاك ، وهكذا يحدث انقسام ، وتتولد عداوات وتنشب خصومات . قالت صحيفة المؤيد (٢٢ - ١ - ١٨٩٨) «مالبثنا أن رأينا دروس الرياضة البدنية فوق كل واجب سواها ، فأصبحت شغل التلاميذ الشاغل ، وموضوع محادثاتهم فى خلال الدروس ، وأوقات الراحة ، بالمدرسة وخارجها . وأهملت المذاكرة إهمالا يثبته فشلهم المتواتر فى امتحان نوال الشهادة الثانوية . وياليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فقد ابتدأت عوامل النفرة والشقاق تتولد بين طلبة كل مدرسة وأخرى مبارية لها فى السباق ، بل بين طلبة المدرسة الواحدة . »

وكان رأى كرومر أن مصر ليست فى حاجة إلى مدارس ، وإنما يكفيها كتاتيب تعلم فيها «القراة والكتابة والحساب مع الالتفات إلى الرياضة البدنية» ولم يكن الشعب ليقبل ذلك . قال أحمد شوقى مخاطبا كرومر :

هل من نداك على المدارس أنها   تذر العلوم وتأخذ الفتبولا ؟

---

(١) تقرير كرومر عن سنة ١٩٠٠ ، المقطم فى ١٣ - ٥ - ١٩٠١

الأدب الترامى

يمكننا أن نطلق اسم « الأدب الترامى » على ماظهر من شعر ونثر ، باللغة الفصيحة ، أو العامية الدارجة ، فى الفترة من أغسطس سنة ١٨٩٦ إلى بدء الحرب العالمية الأولى فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، لأن هذا الأدب كان انعكاسا صادقا لبيئة القاهرة التى تطورت تطورا سريعا على أثر وجود الترام . ودراسة هذا الأدب هى النتيجة التى نخرج بها من الفصول المتقدمة . على أن الدراسة التفصيلية تحتاج إلى مجلد ضخم ، فلذلك سنكتفى بدراسة موجزة . والأدب الترامى نوعان : أدب تصويرى ، وهو الذى صور البيئة الجديدة ، وما فيها من خير وشر ، وخلاعة ومجون ، وعداوة وخصام ، وتقدم وتأخر وغير ذلك . وأدب إرشادى ، وهو الذى يهدف إلى النهوض بالأمة ، ويضع لهـا المعالم فى طريق نهضتها ، ويحذر ويبصر ، ويحفز الهمم والعزائم . وسنبدأ الكلام على النوع الأول .

الأدب التصويرى

١

هجاء الترام ومدحه

عز على قوم من المصريين أن تقوم شركة أجنبية بإنشاء الترام ، فحملوا على الحكومة حملات عنيفة ، وقالوا إنها « غبنت[1] رعاياها غبنا فاضحا فى منحها

---

(١) الأخبار فى ٢٩ — ٩ — ١٨٩٦

امتياز الترامواى إلى شركة أجنبية ،وقبولها استخدام الكهربائية بدلا من الخيل فى تشغيل هذه الخطوط . وأن الحكومة لوحفظت هذا الامتياز لرعاياها الذين يستظلون بظلها ، ويعيشون فى حماها ، ويقومون بنفقاتها ، وأبقت الخيل بدلا من الكهربائية ، لعاد على المصريين من وراء ذلك فائدة كبرى ومنافع جسيمة ، تكاد لا تعد ولا تحصى . ثم صوبوا إليها سهام النقد والتعنيف ، وشددوا عليها النكير » .

فرد عليهم كاتب بصحيفة الأخبار (٢٩ ـ ٩ ـ ١٨٩٦) بمقال جاء فيه :
« ... أما قول المعترضين بأن استخدام الخيل لتشغيل تلك الخطوط كان أفيد وأنفع من الكهربائية ، فهو قول يفسده العلم والتجربة وناموس الكائنات . والغاية المقصودة من وضع الترامواى هى تسهيل النقل وتقريب المسافات ،وتخفيف النفقات . والكهربائية هى أضمن طريقة للوصول إلى ذلك » .

وقد دافع الكاتب عن الحكومة فقال « إن الحكومة أعلنت عن مشروع الترامواى بدل المرة ثلاث مرات ، وتركت المهندسين والمقاولين وقتا كافيا لدرس هذا المشروع ، وإمعان النظر فى أصوله وفصوله ، حتى يقدموا شروطهم عن خبرة كاملة واطلاع كاف . أما الأهالى فلم نسمع عنهم أنهم ألفوا شركة للحصول على هذا الامتياز ، أو سعوا سعيا مفيدا وراءه ، أو كلفوا أحدا من العارفين بمثل هذه الأمور أن يطلع على شروط الحكومة ويبدى لهم رأيه فيها . لا ، بل كنا نراهم يردون من فاتحهم بمثل هذا الكلام خائبا كاسفا ، قائلين إننا قوم أطيان وأقطان ، ونحن راضون بما أوتينا ، وفى القناعة غنيمة» .

أما السبب الثانى الذى جعل فريقا من الناس يسخطون على شركة الترام، فهو أنها لما حددت أجرة التذكرة فى الدرجة الثانية بأربعة مليمات ، وفى الدرجة

الأولى بستة ، لم يكن مع قاطعى التذاكر مليمات تكفى لدفعها للركاب الذين يسددون ثمن التذكرة قطعة من فئة الخمسة مليمات أو العشرة ويطلبون الباقى . فكانت تقوم مشاحنات بينهم وبين قاطعى التذاكر لهذا السبب . وحينئذ تجد الصحف مادة للطعن فى الشركة والتشنيع عليها .

والسبب الثالث هو وقوع حوادث يذهب ضحيتها بعض المواطنين، ويلقى اللوم فيها دائما على سائقى الشركة ، بالحق أو بالباطل .

وكان بعض الصحفيين يرغبون فى الحصول على اشتراكات مجانية ، تبيح لهم الانتقال على جميع الخطوط ، أو يريدون تعيين قريب أو صديق . فإذا لم يجابوا إلى مطالبهم سخروا أقلامهم ضد الشركة ، وتصيدوا لها الأخطاء ، وادعوا أنها تظلم عمالها وتهضم حقوقهم ، بينما هى تربح الأموال الطائلة .

بعد أسبوع واحد من تسيير الترام صدم طفلا فمزق جسمه إربا وقضى عليه فى الحال . وقد فزع سكان العاصمة لهذا الحادث ، وانتهز بعض الأدباء الفرصة، فانهالوا على الترام هجوا وسبا . وقالوا إن عزرائيل يمشى من خلفه متهيئا لقبض الأرواح . وقد أصدر محمود خاطر نشرة[1] خاصة سماها « النشرة الكهربائية » خصصها لحوادث الترام، وما يجرى من مشاجرات بين قاطعى التذاكر والسائقين ، وبين الجمهور . ومما جاء فى مركبة الكهرباء :

تمشى وعزرائيل من خلفها   مشمر الأردان للقبض

وقد ظل المحامون مدة طويلة إذا ترافعوا فى قضية ضد الشركة لصالح أحد المواطنين ، يبدأون مرافعتهم بهذا البيت .

* * *

---

(١) لم نعثر على هذه النشرة فى دار الكتب ، وما أوردته هنا فهو منقول عن المقطم فى ٣٠ – ٨ – ١٨٩٦ .

وقالت صحيفة الشرق (٢٦ - ١٢ - ١٨٩٦) « لا يمر بنا أسبوع واحد حتى نسمع من حوادث الترامواى الكهربائى بمصر أخبارا مكدرة ، فتدهس هذا ، وتصدم ذاك . وما من يسأل عن أرواح العباد ، وخصوصا العجزة والأولاد الذين أصبحوا بمرورهم على الشوارع الممتدة عليها خطوط الترامواى معرضين لخطر الموت دهسا ، أو الكسر ارتطاما . ولم نر سائلا يسأل الشركة ، فكأن الحكومة السنية غافلة عن هذه الحوادث المكدرة ، أو أنها لا تقدر أن تعاقب الشركة لكونها أجنبية ، فتركت التقادير تجرى فى أعنتها ، كما تركت الشركة حرية المسير لمركباتها وسائقيها ، فتسرح وتمرح فى شوارع العاصمة بدون انتباه ولا التفات إلى من أمامها من العمى والعجائز والأولاد » .

وقالت صحيفة الأخبار (١٢ - ١٢ - ١٨٩٦) تحت عنوان « شرور الترامواى » « رخصت الأرواح ، فافتتح ركوب عربات الترامواى بابا لبيعها وشرائها . فكأن الترامواى بعرباته عنترة العبسى بفرسه وسيفه إذ قال :

حصانى كان دلال المنـــايا   فخاض غمــارها وشرى وباعا
وسيفى كان فى الهيجا طبيبا   يداوى رأس من يشكو الصداعا

فالترامواى هو البطل المغوار ، الذى يخوض بركابه غمرات الموت من العباسية إلى ضواحى مصر ، شجاع مطلق الأعنة ، جموح لا يعبأ بأقوال الجرائد ، ولا يثنى زمامه غير أمر الشركة التى اكتسبت من خوضه هذه الغمرات الأصفر الرنان ، الذى ينسى ويلهى كما ينسى الشيطان . ولو أنشئت جريدة فى هذه العاصمة لسرد حوادث الترامواى اليومية لملأت أعمدتها كل يوم بأخباره ، ولا تتعطل إلا إذا ركب مخبروها الترامواى » .

وقال إلياس حنيكاتى تحت عنوان « الترامواى[1] الكهربائى »

إن الترامواى على القاهره   مصيبة يا قومنا قاهره
فكم قلوب هالها رهبة   وكم نفوس غالها طاهره
وكم وكم أيد به قطعت   وأرجل أضحت به طائره
يجرى وعزرائيل من خلفه   يمد للقبض يدا غادره
فى كل يوم شره دائر   ليت عليه دارت الدائره
هناك ثكلى جرعت حسرة   تشكو وفى أحوالها حائره
تنتفض الرعدة فى جسمها   وعينها نحو ابنها ناظره
ليس لها ياقوم من منصف   لا ناصرا تلقى ولا ناصره
كأننى بالعدل قد مات أو   قضى عليها أنها جائره
أجارها الله فلا غيره   يجير نفسا حرة صابره
فيا رجال الضبط ماضبطكم   وأين الأعين الساهره ؟
ما شرف الدنيا بشىء إذا   لم يتبعه شرف الآخره

هذه نظرة بعض الأدباء إلى الترام ، وهى نظرة ضيقة من غير شك ، لأن الترام له طريق محدد ، لا يستطيع أن يحيد عنه يمينا أو يسارا ، كما تفعل عربات الخيل ، فكان ينبغى على الناس أن يراعوا النظام ويتأنوا فى سيرهم ، ويلتفتوا جيداً قبل عبور الشوارع . وعلى كل حال فقد كان السائقون مصريين ، وكانت الشرطة تحقق معهم ، وتأمر النيابة بحبسهم إلى أن يصدر القضاء حكمه عليهم . فلم تكن المسألة فوضى كما حاول هؤلاء الأدباء أن يصوروها .

---

(١) المقطم فى ٢٥ - ٣ - ١٨٩٨

بل إن بعض الـكتاب تجاوز النقد إلى التهكم والسخرية . انظر إلى ماجاء فى الأخبار (٢٨ ـ ٨ ـ ١٨٩٧) تحت عنوان « نيشان ربطة الذراع » « هو نيشان جديد ، وضعته شركة الترامواى لمـكافأة المستخدمين الذين أمضوا سنة كاملة فى خدمتها ، وهو كناية عن شريطة زرقاء ، يضعها المستخدم على ذراعه فى وقت الشغل ، دلالة على قدم عهده فى خدمة هذه الشركة . ولـكن البقالين والخبازين والجزارين لم يصادقوا بعد على هذا النيشان ، ولا يزالون يطلبون من مستخدمى الترامواى أن يدفعوا نقدا ثمن مأكولاتهم . فيا حبذا لو أن هذه الشركة أبدلت هذه الشريطة التى تهزأ بها على مستخدميها وعلى الناس أجمعين بزيادة فى رواتب هؤلاء المنكودى الحظ ، الذين أدى بهم نحسهم إلى خدمة هذه الشركة التى عدمت الشفقة والرأفة من قلوب أصحابها . »

فماذا يهم الجمهور من قرار أصدرته الشركة يقضى بأن يضع كل عامل من عمالها شريطا على ذراعه ؟ بالطبع لا شىء يهمه من ذلك ، ولـكن كاتب المقال انتهزها فرصة لحاجة فى نفسه وكتب ما كتب . وما علاقة البقالين والجزارين والخبازين بهذا الشريط ؟ ثم من الذى أقامه مدافعا عن حقوق العمال بهذه الصورة التى توغر الصدور ؟

* * *

وإذا كان بعض ذوى الأغراض قد شنعوا هذا التشنيع ، فإن الشركة لم تعدم المنصفين . كتب أديب فى صحيفة الرائد المصرى (١٦ ـ ٤ ـ ١٨٩٧) مقالا جاء فيه « إن الناظر إلى عربات الترمواى تنساب على الخطوط الحديدية الممتدة فى شوارع العاصمة ، وهى مثقلة بالركاب ، بأقل الأجور ، لا يسعه إلا أن

يحكم بفضل المشروع ، وبأن الحكومة التى أجازت العمل فى زمنها ، والشركة التى أقدمت عليه ، قد طوقتا جيد هذه المدينة وسكانها بالجميل والمنة » .

وحينما أضرب عمال الترام فى سنة ١٩٠٨ ، واختفت القطارات من الشوارع عانت الجماهير بلاء كبيراً . قالت صحيفة اللواء (٢٠ - ١١ - ١٩٠٨)

« لبثنا اليومين الماضيين ، والإنسان يظن أن سكان مدينة القاهرة قد زاد عددهم فاكتظت بهم الشوارع والأرصفة ، بل صار السائر فى الطريق يلتطم بهذا ، ويختبط بذاك ، من كثرة الرائحين والغادين ، لأن الترام قد توقف عن العمل بسبب اعتصاب عماله ، ففضل الفقير السير على الأقدام عن ركوب العربات ومشى مريحا نفسه من استبداد الحوذية خصوصا فى أيام كثر فيها الطلب . حقا إن للترام فضلا لا ينكره إلا ناكر للجميل . وقد لاحظنا أن أصحاب الأعمال الوقتية التى تستدعى كثرة الجولان فى المدينة تعطلت أعمالهم تقريبا ، وستعطل إذا لم يتكبد صاحب الحاجة مشقة صرف مبالغ كثيرة أجراً للمركبات ، بينا نرى البوليس قد أهمل أمرا واجبا ، وترك الحان على غاربها ، فأطلق الحوذى عنان طمعه وإلحافه ، بل قلة أدبه ، وكثرة سبابه للراكبين ، إلزاما لهم بدفع الأجر أجرين . وكم شكا إلينا أشخاص عوقبوا بدفع غرامات باهظة أجرة لركوبهم المركبات ، حتى كادت الأجور تزيد على الضعف » . .

وهذا الكلام حق لا ريب فيه ، صدر من صحيفة محترمة تنطق بلسان الحزب الوطنى ، مما يبعد الشبهة عنه . وقد أعطانا الكاتب صورة بشعة لاستغلال الحوذيين للجماهير ، وانتهازهم الفرصة لإشباع طمعهم ، وتطاولهم على الناس بالسب والشتم ، لإرغامهم على دفع الأجر أجرين . واضطرار الفقير إلى قطع المسافات الطويلة سيرا على قدميه .

و« قصد[1] أحد الأدباء زيارة صديق له ، فركب الترامواى ، ولـكنه لم يجده ، فنظم الأبيات التالية :

تحملنى إلى مغناك سارى ... بلا خيـــل يسير ولا بخار
يبارى الريح إسراعا ويطوى ... عروض الأرض آناء النهـار
ليوصل بين أنحـاء شتـات ... يقارب بينها قرب الجوار
تجرى خط مجراه فما إن ... يحيـد إلى اليمين أو اليسار
ركبت به فأمعن مستهاما ... كما انساب المرقش من نفار
كأن به من الأشواق مثـلى ... فليس بهـادىء دون المزار
فلمـا جاء موقفه نزلنـا ... نسائل من نراه عن الديار
فأوصلنا الدليـل إلى بنـاء ... تجلل بالمهابة والوقار
سألنا أين سيده فقـالوا ... توجه مصر من بدء النهـار
فعدت إلى الترام بغير حظى ... وأودعت الكتاب لخير قارى

فهذا الشاعر معجب بالترام كل الإعجاب ، لأنه لا يحتاج إلى خيل تجره ؛ ولا إلى بخار يسيره . ومن دواعى إعجابه بالترام أنه يسير بسرعة فائقة حتى كأنه يسابق الرياح ، فيطوى الأرض ليوصل بين جهات متباعدة بعضها عن بعض ، فيجعلها كأنها متجاورة ، بعد أن ألغى المسافات بينها . وهذا الترام تجرى عجلاته على الخطوط الحديدية الموضوعة لها ، وهو ملتزم بها ، لا ينحرف يمينا أو يسارا . وهو ينساب مسرعا كما تنساب الحية ممن يطاردها . وكأنه مشتاق ، أضناه الشوق ، ولوع به الغرام ، فلا يهدأ ولا يقر له قرار إلا إذا وصل إلى من يحب .

---

(١) المقطم فى ١٨ – ٢ – ١٩١٤

نلاحظ فى هذه الأبيات وجود تعاطف بين الشاعر والترام ، تعاطف ينم عن حبه له ، حبا جعله يشخصه فى صورة حية . فالترام شخص عاقل ، يتحرى خط مجراه ، ويلتزم به ، وهو بذلك لا يصدم أحدا ، ولا يلحق ضررا بإنسان . وهو عاشق ولهان ، ينطلق إلى عشيقته فى غير تمهل .

* * *

وقد مر بنا فى غير هذا الموضع أن عربات الأمنيبوس لم تختف بظهور الترام ، بل استمرت فى عملها ، وأدخل أصحابها عليها تحسينات وساعد على ذلك أن الحكومة بدأت منذ مطلع القرن العشرين تعنى بأمر الشوارع وتتوسع فى تعبيدها ورصفها . وقد تخيل كاتب أن الترام منزعج من عربات الأمنيبوس ، متضايق من وجودها فكتب إليها رسالة ، عنوانها « من الترامواى التعيس إلى عربات الأمنيبيس » هذا نصها :

ياعجوز الشوم ، وداهية خيبر .

مضى على حين من الدهر ، وأنا أخطر فى الشوارع كما يخطر النسيم . وأتهادى فى سيرى كما يتهادى الغصن السليم . فمنظرى بديع ، ومقامى رفيع ، وعرباتى نظيفة ، وحركاتى خفيفة . تقصدنى ربات الحجال ، وتترامى علىّ خيار الرجال . وكل فى مكانه يقيم ، لا يتعداه إلى محل الحريم . ولبثت على هذا الحال وأنا فى السراء ، حتى ظهرت ياعجوز بالدهاء . فحملت جميع الأجناس فى مكان واحد . وأبحت للناس حرية الجلوس فى المقاعد . فكنت تسيرين وقد التفت الساق بالساق . وتزاحمت الأقدام وضاق النطاق .

---

(١) الخلاعة فى ١٢ ـ ١١ ـ ١٩٠٤

غمز ولمز ، وهز ورمز . وتعارف وائتلاف ، وتناكر واختلاف ، إلى غير ذلك من الفصول والمناظر التى تذهب الفكر وتحير الخاطر . ومن جراء هذه التقريرات هجرنى الجميع إلى تلك العربات ، فصرت أغدو وأروح ، صباح مساء ، ولا من يقصدنى من الرجال والنساء . عرباتى أفرغ من فؤاد عمالى وعجلاتى تدهس الناس من ضيق أحوالى ، لمزاحمتك إياى فى كل الطرقات ، ومشاركتى فى جميع المحطات . وطالما صبرت عليك صبر الكرام ، وانتظرت تغيير خطتك يابنت الحرام ، حتى ضاق الخناق ، وبلغت الروح التراق . وأنت تفسحين أمكنة التبصيص ، وتوسعين مجال التهجيص . وصرت مرسحا لمغازلة العيون الفواتر ، ومحطا لاصطياد الحرائر ، فجئتك بهذا الكتاب ياعتيقة ، ولا أنتظر الجواب عليه دقيقة . فإن أجبت بما يفيد الاعتدال والإقلاع عن هذه الخصال ، تركتك على حالك . وإن كان غير ذلك فلابد من دهسك ودهس عمالك » .

فى هذه الرسالة دفاع عن الترام إذ فيه مكان خاص بالنساء ، وهو متسع بخلاف عربات الأمنيبوس التى يجلس فيها الرجال إلى جانب النساء ، وتلتف الساق بالساق ، ومع ذلك فإن الكتاب لم يشنعوا على هذه العربات ، وإنما كان تشنيعهم دائما موجها إلى الترام .

— ٢ —

شبان العصر الترامى

كان شبان العصر الترامى ـ كما صورهم الأدب ـ يبالغون فى التأنق والزخرف والزينة . كتب أديب من الأرياف جاء إلى القاهرة فى شتاء سنة ١٩٠٢ ، يصف ما رآه من أحوال الشبان الترامبين : « هؤلاء[1] زمرة من الشبان الأحداث، تفننوا فى تحسين هندامهم ، واخترعوا الأزياء المختلفة الألوان ، التى لم يسبقهم فيها سابق . وعلى هذا يدور حديثهم ، ولا يشغلهم غير زى جديد ـ مودة ـ واختراع حديث فى التفصيل . وجل أمانى كل شاب أن يكون أحسن من صاحبه فى الزى ، وألطف فى الشكل لينال الإعجاب ، ويكون حظه التفاخر على الأقران . ياللعجب ! ما هؤلاء الذين يسيرون ، ووجوههم ممسوخة ، وأزياؤهم غريبة مختلفة فى اللون والشكل ، يمرحون فى الطرق ، ويجولون فى الشوارع من غير معارض ، ويقابلون الناس بالمزاح والملاعبة » .

وهذا الكلام ينطبق على أبناء الأغنياء ومتوسطى الحال . أما أبناء الفقراء فلم يكن فى مقدورهم أن يفعلوا شيئا مما ذكره الكاتب فى مقاله المتقدم . وعلى كل حال فإن موازين النقد تتغير تبعا لتغير الزمان . فهنالك أشياء كثيرة كانت فى ذلك الوقت مما تعاب على الشبان . كلبس الحذاء الملون اللامع ، وكالمواظبة على حلق اللحية كل يوم أو يومين ، أو حلق الشارب ، أو ارتداء قميص بياقة عريضة مفتوح من أعلى الصدر . أو اتخاذ ساعة اليد لأن لها سوارا يشبه سوار

---

(١) المؤيد فى ٤ — ٣ — ١٩٠٢ .

المرأة . أو ارتداء الملابس ذات اللون الفاتح . أو إطالة شعر الرأس وترجيله . وكذلك ارتداء السراويل المحزقة والسترات المشقوقة من الخلف . كل هذا كان يجعل الشبان مخنثين فى نظر أدباء العصر الترامى . وصحيح إن الشبان كانوا يسيرون جماعات ، يضحكون ويعبثون ، وليس هذا مما يعاب عليهم ، أو يحط من منزلتهم . لقد اتخذ أدباء هذا العصر من سلوك الشبان مادة خصبة شغلوا بها أنفسهم ، كما شغلوا الرأى العام بها . قال مصطفى صادق الرافعى تحت عنوان « التمدن[1] الأنثوى » .

أرى فئة كالغانيات تدللا	تميل مع الأهواء كل مميـل
تخال الفتى منهم على ظلمة النهى	لألوان ثوبيه سماء أصيـل
وظن الفتى أن التمدن أنثوى	فتابع فيـه كل ذات حليل
تماجن فى أشكالها من مصبغ	إلى كل مجلو وكل صقيـل
إلى اللفظ حتى ما تـكاد شفاهه	تبين بلفظ منه غير نحيـل
إلى اللحظ حتى ما تـكاد جفونه	تطارح لحظا منه غير عليـل
أولئك هم شباننا لو عرفتمو	وهم كل من فى مصر غير قليل

قالت صحيفة المؤيد (٣٠ ـ ٣ ـ ١٩٠٨) « هذا ما وصف به الرافعى شباننا وكلامه يصدق على بعض من يتأنقون فى الزينة ، فيصففون شعورهم ، ويحففون خدودهم ، وينغمون بأصواتهم ، وربما مزجوا كلامهم ببعض الألفاظ الإفرنجية ، ويختارون من الألبسة آخر زى ، من صدرة ملونة مخرمة ، صنعت من القطيفة المزركشة ، وسترة مشقوقة ، وسراويل ضيقة ، وخاتم ماس فى اليد ، وعصا

---

(١) المؤيد فى ٢٠ ـ ٢ ـ ١٩٠٨ .

عقاقتها من الذهب ، وحذاء ملونا ملمعا ، وطربوشا مكويا . عبقت منهم رائحة الطيوب والعطور ، وقد حرصوا على الأزياء حرصهم على أعز الأشياء . إن من شبابنا من يصرفون ساعتين كل يوم فى التبرج كأنهم بعض النساء يتزين لبعولتهن . جارينا الغربيين فى التبرج والتزين بعد أن كانا غير معهودين فى الشرق إلا المخنثين . إن الرجل منا قد يصرف على لباسه ربع دخله ، فيستلف ويعطل ، ويهون عليه ما يأتى ولو باع الطين ، ورهن العقار ، ليلبس كل أسبوع بل كل يوم بدلة جديدة ، كأنه من نساء الأغنياء فى نيويورك » .

والسر فى تأنق الشبان أنهم كانوا يتنقلون بين محطات الترام لاصطياد النساء . ولا شك فى أن الأناقة سلاح فعال فى هذا الصدد ، لأنها تدل على الغنى ، فتنخدع المرأة وتسير مع الشاب . وكان يكفى أن يصدم الشاب المرأة بكتفه حتى تتبعه إلى حيث يشاء . وفى هذا المعنى يقول أحمد شوقى :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
فاتقوا الله فى قلوب العذارى فالعذارى قلوبهن هواء

* * *

وقد حمل المشهورون من شعراء ذلك العصر الدعوة إلى شرب الخمر ، فكانوا بذلك قدوة سيئة للشبان . قال أحمد شوقى :

رمضان ولى هاتها ياساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على ألافها وأقله فى طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعها إن كان ثم من الذنوب بواق
بالأمس قد كنا سجينى طاعة واليوم منّ العيد بالإطلاق

ضحكت إلى من السرور ولم تزل بنت الكروم كريمة الأعراق
هات اسقنيها غير ذات عواقب حتى نراع لصيحة الصفاق(١)
صرفا مسلطة الشعاع كأنما من وجنتيك تدار والأحداق
حمراء أو صفراء إن كريمها كالغيد، كل مليحة بمذاق
لا تسقنى إلا دهاقا إننى أسقى بكأس فى الهموم دهاق(٢)
فلعل سلطان المدامة مخرجى من عالم لم يحو غير نفاق

نشرت هذه القصيدة فى صدر صحيفة المؤيد فى اليوم الثلاثين من شهر رمضان سنة ١٣٢١ هـ، الموافق ١٩ ـ ١٢ ـ ١٩٠٣ وهذا الشعر انعكاس للبيئة التراميه الماجنة التى أباحت لأحمد شوقى أن يطلع على الناس وهم ما زالوا صائمين متحدثا عن فرحته وابتهاجه بانقضاء شهر رمضان الذى كان طويلا ومملا بالنسبة لرجل سكير مثله، بل كان كالسجن، حرم فيه من ارتكاب هذه المعصية. وهو فرح جدا لأن العيد أقبل فأطلقه من السجن وخلصه من قيوده الثقيلة، فسار على هواه، وترك نفسه على سجيتها. ومن المؤكد أن الشاعر نظم قصيدته قبل نهاية رمضان ببضعة أيام. فإن كان صائما فكيف أقدم على التغنى بمحاسن الخمر فى أبيات كثيرة تشوق القارىء لشربها؟ إن هذا الشعر لا يصدر إلا من رجل مخمور، فإذا قال إنه كان سجين طاعة فهو قطعا غير صادق. وأقبح من هذا قوله:

الله غفـــار الذنوب جميعها إن كان ثم من الذنوب بواق

(١) الصفاق: الديك. يقول اسقنى الخمر حتى مطلع الفجر.
(٢) الكأس الدهاق: الكأس المملوء إلى نهايته.

وقوله :

فاعل سلطان المدامة مخرجى من عالم لم يحو غير نفاق

لأنه فى هذين البيتين أعطى مبررا للعصاة لارتكاب هذه الفاحشة ، فإذا لامهم لائم قالوا إن الله غفار رحيم ، وأنهم يتعاطون الخمر ليهربوا من عالم ملىء بالخداع والنفاق والرياء .

وقال فى قصيدة أخرى :

آذار أقبل قم بنا ياصاح حى الربيع حديقة الأفراح
واجمع ندامى الظرف تحت لوائه وانشر بساحته بساط الراح
صفو أتيح فخذ لنفسك قسطها فالصفو ليس على المدى بمتاح
واجلس بضاحكة الرياض مصفقا لتجاوب الأوتار والأقداح
واستأنسنّ من السقاة برفقة غر كأمثال النجوم صباح
واجعل صبوحك فى البكور وسيلة المنجبين : الكرم والتفاح

ألخ . . . .

فإذا أقبل شبان العصر الترامى على السكر والعربدة ، فلهم العذر كل العذر ، لأن البيئة كانت فاسدة ، وساعد على نشر الفساد مثل هذا الشعر الذى يحبب إلى النفس ارتكاب المعاصى ، ويزين لها الانغماس فى الشهوات ، واغتنام أوقات الصفاء وأيام الشباب التى لاتعوض ، وبخاصة إذا كان قائل هذا الشعر هو شاعر الخديو ، والناس على دين ملوكهم . ولأحمد شوقى شعر كثير فى التغنى بأوصاف الخمر ، والدعوة إلى شربها .

. . .

وكتب مصطفى لطفى المنفلوطى تحت عنوان « المرقص[1] » .

« إن كنت لم تسمع فى حياتك أن فدانا واحدا من الأرض يبتلع فى جوفه ستة ملايين من الأفدنة ، فاعلم أنه المرقص الذى يأكل وحده جميع ماتنبته تربة مصر من الخيرات والبركات . فكأنه العين التى تسع الفضاء بأرضه وسمائه ، أو القلب الذى يحمل فى سويدائه ما كان ومايكون » .

« رأيت الدنانير ذائبة فى الكئوس ، والعقول جامدة فى الرءوس ، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب ، والسهام مسددة لاصطياد القلوب . ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلا وأذكاهم قلبا ، ومن كنت أراه فأغضى بين يديه إجلالا وإكبارا ، واقعا فى حبالة بغى ، تقيمه وتقعده ، وتطويه وتنشره ، تعبث به عبث الطفلة بلعبتها . وهو فى غير هذا المكان قيصر الرومان عزة ونخارا ، وكسرى فارس أنفة واستكبارا » .

« رأيت من يزعم أن الله قد وهبه عقلا يخترق أشعة حجب الغيب ، وعلما تتساوى أمامه المادة وما وراءها ، ومن لايزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر :

وعلمت حتى ما أسائل واحدا   عن حرف واحدة لكى أزدادها

يجهل قضية من القضايا الأولية ، التى يشترك فى فهمها الأذكياء والأغبياء ، والعلماء والجهلاء . رأيته يجلس فى المرقص فتمر به البغى ، فماهى إلا لمحة طرف ، أو غمزة كف ، حتى تحدثه نفسه أنه قد وقع من نفسها ، وملأ فراغ قلبها ، فيدعوها إليه فتجلس بجانبه ، فما هى إلا ابتسامة خائنة ، أو كلمة كاذبة ، حتى يقسم بكل محرجة من الأيمان أن نفسه صادقة فيما حدثته ، وأن الفتاة قد علقت

(١) النظرات ٣/١٤١ ـ التجارية .

به علوقا لا نجاة لها من بعده إلى يوم يبعثون » .

« هنالك يبذل لها مايشاء من نفسه وشرفه وماله ، ويرى أن ذلك قليل في جانب ماتبذل له من دقائق تقضيها بين يديه ، وابتسامات تجود بهـا عليه . والله لا يبلغ العدو منا بخيله ورجله وأساطيله وقنابله ، ولا الأرض بزلازلها وبراكينها ما يبلغ منا هذا المرقص ببغاياه » .

أجاد المنفلوطى فى وصف مظاهر الفساد والانحلال التى انتشرت بين كافة طبقات الأمة خلال العصر الترامى . ووجد فيها مادة خصبة حية ، فتدفق قلمه بالعبارات البليغة والأساليب الجميلة التى تأخذ بمجامع القلوب . وهو هنا يعطينا صورة لبعض ما كان عليه الحـكام ، من غطرسة وتجبر وكبرياء وادعاء ذكاء وعلم ، فإذا هم يضعفون ويتضاءلون أمام بغى لا فى العير ولا فى النفير، حتى يبدوا كالأطفال غفلة وسذاجة .

* * *

وقال شاعر لم يذكر اسمه :

يممت شطر الأزبكية علنى ... أمحو بها بعض الهموم وأمحق
ودخلت أجمل قهوة مع صاحب ... صادفته وأخو الهموم موفق
وجلست إذ جلس الصديق ولا تسل ... عما حواه المجلس المتأنق
قد زينت بالـكهربا أرجاؤه ... حتى كأن الشمس منه تشرق
وأجمع إلى هذا الجمال أوانسا ... يبرزن للقلب الخلى فيعشق
ولقد تكلفت الحديث وصاحبى ... فى شاغل يرنو لهن ويطرق
يشكو الهوى سرا وخاطر فـكره ... وجدا يغرب تارة ويشرق
حتى دنت من بينهن مليحة ... بلحاظها ترمى القلوب وترشق

فتنفس الصعداء لما أقبلت وفؤاده وجدا بها يتمزق
جلست بجانبه تخامره الهوى وأخو الصبابة باتهتك أخلق
قالت له : ماذا تريد ؟ أبيرة ؟ فأجاب : لا ، كنبياك ، ذلك أوفق
وإذا سمحت فجالسينا لحظة ثم اطلبي ماتشتهين فأنفق
فتهللت فرحا وأسرعت الخطا مدفوعة فكأنما هي زئبق
ثم انثنت من بعد ذا وبكفها خمر تذوب بها القلوب وتحرق
خمر معتقة ولكن الذي يحيا بها عبد لها لايعتق
ولقد نصحت إلى الصديق وكلما محضته نصحى يثور ويحنق
فتركتها بفنونها وتركته بجنونه وهو الجنون المطبق
فإذا هما يتغامزان وصاحبي بادى الهموم وفكره متفرق

* * *

واسترجعت فأتت وقد لمحت على إحدى يديه خاتما يتألق
إن كنت تهوى ، أين تذكار الهوى ؟
يأيها المتلون المتملق
مدت بأسرع ما يكون لكفه يدها فأبعدها فقامت تحنق
وجرت فأمسك ثوبها وأعادها والأشعبية لاترق وترفق
وأدار رنات الكئوس فأرشكت روحى تذوب لهول ذاك وتزهق
وعجبت من هذا الذى شاهدته فكتمته والصدر منى ضيق
حتى دنا الميعاد فانصرف الورى وهو الذى فيه الملاهى تغلق
وبدت مصابيح المحلة تنطفى شيئا فشيئا والظلام يحلق
فتعجلته على الحساب ودفعه والهم يحتاط الفؤاد ويحدق

فرمى لها عشرا من الذهب الذى   يرنو له قلب الفقير فيخفق
ثم انثنى فتكلفت توديعه   والغر يحسبها تحب وتصدق
فتبعته عدوا فلم أعثر به   وأنا أحدق فى الدجى وأحقق
وإذا به قطع الطريق له على   قدميه وهو يكاد غيظا يصعق
فعجبت من نزق الشباب وفعله   وكذاك يفتقر الغنى الأحمق

فهذه القصيدة تحكى قصة واقعية مما كان يحدث للشبان فى ذلك العصر ، فى الحانات والمراقص ، وكانت كلها ملكا للأروام والإيطاليين ، يحتمون بالامتيازات ، وينصبون الشباك للمغفلين ليسلبوهم أموالهم ، فيغتنى هؤلاء الأجانب ، ويفتقر المصريون . قالت مجلة الأجيال (١٦ ـ ٧ ـ ١٨٩٨) « ... فبينما نرى الشبان الغربيين يقضون ثمين الوقت فى تعلم الصناعات المفيدة، والفنون الجليلة ، نجد كثيرين من شباننا الذين هم رجال الغد حيارى سكارى فى الحانات والمقامر ، فيفقدون فى ساعة واحدة ماحصلوا عليه بشق الأنفس ومواصلة الليل بالنهار ، أو ماسهر على تحصيله آباؤهم . فمن أعظم آفات الشبان فى مصر المقامرة والإنفاق على الخليعات ، وهما آفتان قد خربتا البيوت العامرة ، وأضاعتا الأموال الوافرة ولم تزالا كالسوس ينخر عظام الهيئة الاجتماعية المصرية » .

* * *

وكان الخديو عباس يقيم فى قصر عابدين حفلة راقصة فى كل شتاء ، يدعو إليها نحو ألفين من كبار الأجانب والوطنيين ، رجالا ونساء . وتطلع الصحف بوصف تلك الليلة ، ومادار فيها من رقص ، وما شرب من خمر . قالت صحيفة اللواء (٢٧ ـ ١ ـ ١٩٠٢) تحت عنوان « الباللو الخديوى » .

« ما بابل فى موكبها وعند أكبر مآدبها ، ولا الإيوان وكسرى قائم بولم فى النيروز الولائم ، ولا الحمراء إذ الأيام أيامها ، والدهر غلامها ، وإذ يموج بها العرب بين الوقار والطرب ، ولا الخورنق ولا السدير فى يوم مهرجان كبير ، ولا الليالى الرشيديات على دجلة والفرات بأحسن تصويرا فى خيال الشاعر ، ولا ألطف حضورا فى خاطر الناثر من قصر عابدين ليلة هذا الباللو المأنوس » .

ثم قالت « . . . فلما كانت الساعة العاشرة من الليل أقبل المدعوون مواكب تترى آتية من كل مكان . وقد أخذت السيدات للباللو زينته ، ولبسن له أفخر الثياب والجواهر ، كأنهن نيرات على الأرض زواهر . هناك وقفنا وما فى فتنة النظر شك لمن حضر ، ولا منها حذر . يمر بنا اللؤلؤ المنثور من تلك الحاكيات الحرر ، تراهن أمثال النيرات ، منتظمات فى العين منتثرات قريبات للنواظر بعيدات . تأخذهن العيون مقبلات ، ويأخذن القلوب مقبلات مدبرات . مائسات عن قنا وغصون ، متلفتات عن جنات وعيون ، مكشوفات السواعد والأكتاف عن لجين ، باسمات عن الدر سمطين سمطين » .

« وهناك صدحت الموسيقى بتحية صاحب الدعوة الأكرم ، ثم ألقت آلاتها بالنغم فى هذا المزدحم ، فإذا هو على قدم ، أخذت اليد باليد . ودار الساعد بالساعد ، والتفت الساق بالساق ، وانبرى الراقصون والراقصات ، واندفع الواثبون والواثبات ، متجمعين آونة ، متفرقين آونة ، متهادنين تارة ، متواثبين تارة . وآنا يذهبون ذات اليمين وذات الشمال ، وآنا تراهم كالعقد المفصل ، بين كل لؤلؤتين من ربات الحجال خرزة من الرجال . فكنت ترى القامات عند اهتزاز بانها كأنها الألفات فى عين لا قرار لإنسانها . تميل دفعة واحدة كالغصون مع الريح مائلات ، ثم تستقيم دفعة واحدة كالقنا فى مراكزها صافات

ثم تستدير فتريك خروج الأقمار من الهالات » .

« وفى الساعة الثانية عشرة فتحت قاعات الموائد ، وشرف الجناب العالى البوفيه الأكبر فتناول شيئا من المرطبات ، داعيا بذلك جماعات المدعوين إلى هنى الشراب ، وشهى الطعام . فأقبلوا على خوان ممدود ، وحوض مورود ، وكرم وجود ، وحديث على ابنة العنقود . ينبسط لهم الخوان كيفما داروا ، ويدنو لهم بعيده أينما توجهوا ، وكأنه البحر لا يزحم ولا تنقص أطرافه . جمع من الأوانى كسرويها ، ومن الفاكهة جنبها ، ومن اللحوم شهيها ، ومن الخمر بابليها ، ومن المرطبات تركيها » .

وكانت بعض المجلات الصغيرة تنتهز هذه الفرصة فتحمل على الخديو حملات عنيفة ، وتصفه بأنه يضرب مثلا سيئا للشبان . قالت مجلة العجائب (١٢ ـ ٢ ـ ١٩٠٢) «أتدرى أيها المصرى ، ويأيها المسلم ماذا يجرى فى هذه الليلة ؟ يجرى فيها ما يحمر منه وجه الإسلام خجلا ، ويصفر من منظره وجه الدين وجلا . يجرى فيها ما نلوم عليه الشبان ، ونشكو منه فى كل زمان ومكان يجرى الرقص على أنواعه ، والسكر على أشكاله » .

« بأى دين يدين الخديويون ؟ بدين الإسلام ؟ وهل هذا الدين يبيح مخاصرة الغيد ، ومنادمة الحسان ؟ وهل هذا الدين يبيح هذه الخمرة التى تمد على مائدة المدعوين ؟ وهل هذا الدين يبيح هذه النفقات الباهظة التى تنفق على هذه الليلة ؟ بالأمس كنا نبكى من محلات الرقص ، وننوح من معاهد الخمر ، ونستغيث بالأمير ، ونستنجد به أن يهتم بإزالتها ، فلم نشعر إلا وسموه أقام للرقص معهدا ، وللخمر مائدة » ؟

« ماذا نقول للشبان ؟ وماذا نعيد للفتيان ؟ هل لنا لسان نقدر أن نخاطبهم

بالامتناع عن محلات الرقص ؟ أم هل لنا قلم نقدر أن نفوقه عليهم ليجتنبوا محلات الخمور ، وأمير البلاد ، وسيد الحكومة المصرية يقيم فى سراى الإمارة الرقص ، ويمد الشراب ؟

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا فلا تلم الفتيان يوما على الرقص

يأيها الشبان ، ويأيها الفتيان ، نستغفركم ونتوب إليكم من تنديدنا بكم ، وتبكيتنا لأعمالكم . ارقصوا ، ارقصوا . واشربوا واطربوا . وإن سألكم مولاكم عن هذه المخالفات ، فأمامكم سراى عابدين ترد عنكم الجواب ، وتناقش بدلكم الحساب » .

وعرضت مجلة الصاعقة(١) لليلة راقصة أحييت فى شتاء سنة ١٩٠٤ فقالت تحت عنوان « ليلة فى قصر نائب الخليفة » « لو قام محمد من القبر ، وحوله شهداء بدر ، وشاهد ماحدث البارحة من القصف فى القصر ، ورأى شوقى وهو يصف الليلة بأنها حسنة الدهر ، وليلة القدر ، وسمع الناس يتحدثون بثنائه ويعجبون بغريب إطرائه . وأبصر تلك الدائرة ، وقد اختلط فيها الرجال بالنساء ، وهم من تأثير الصهباء يثبون فى الهواء ، وقد جذبت الأيدى الخصور إلى الصدور ، ومالت على الأكتاد الأعناق ، والتفت الساق بالساق ، وتكسرت الجفون ، وذبلت العيون . وقد أظهرن ما أخفينه طول الدهر من الصدر إلى النحر ، ليظهرن بهذا التبرج بمظهر الجمال فى أعين الرجال . ورأى جماعة وقد انتحوا ناحية بملابسهم المقصبة ، وعمائمهم المذهبة ، وهم يمدحون واحدة لفرط جمالها ، ويذمون أخرى لشدة قبحها . ويقولون : أنأخذ بقول

(١) الصاعقة فى ٢٢ – ١ – ١٩٠٤ .
(٢) الأكتاد ، جمع كتد ، وهو مجمع الكتفين .

الله قل المؤمنين ، الآية ، ونترك قول العرب : اليوم خمر ، وغداً أمر ؟ لا ، والله ، لا كان هذا . لو رأى كل هذا رسول الله لحول وجهه عنهم ، ولحلف بالله أن لا يشفع لأحدهم ، ولعاد إلى قبره مهرولا ، وهو يقرأ قول الله تعالى ـ لحق عليها القول فدمرناها تدمير » .

* * *

وسبق أن رأينا كيف انتشرت أندية القمار ، وكيف كان الشبان ينفقون ثرواتهم داخل هذه الأندية . وقد كان هذا الموضوع الشغل الشاغل لكتاب العصر التراى وشعرائه . قالت مجلة المنار (٥ ـ ١٠ ـ ١٩٠٠) تحت عنوان « القمار فى الكبار والصغار » « القمار آفة الكسب ، وجائحة المال ، ومفسدة الأعمال ، وميكروب الكسل ، ومجلبة الزلل . ولقد ابتلى به المصريون ابتلاء أفقر أغنياءهم ، وأذل كبرياء من أصيب به منهم . وكل مصرى يعلم أن بلاء المضاربات فى هذه السنة كان أشد من بلاء انخفاض ماء النيل ، ونقص غلة الأرض . وليس من غرضنا الآن شرح مصائبه ، وبيان خسائره ، وإنما الغرض التنبيه على أن الفقراء والمساكين قلدوا الأمراء والأغنياء فى هذه الموبقة ، كما هى سنة السكون ، فأدخلوا المقامرة فى كل الخسائس والمحقرات ، حتى تجد باعة الفستق لا يبيعون الآن بالدراهم ، وإنما يأخذ أحدهم قبضة ويسأل مريد الشراء : أزوج أم فرد ؟ فإن جاء عددها كما يقول المالك ، أخذ ثمنها مضاعفا ، وإلا أعطاها مجانا . وهكذا يجنى الكبراء على سائر الناس ، وهم الذين يخربون البلاد ، ويهلكون العباد » .

وظهرت فى هذا العصر أنواع من ألعاب المقامرة لم تكن معروفة من قبل ، وهى التى تشاهد اليوم فى ساحات الموالد ، كما انتشرت أوراق النصيب التى

تصدرها الجمعيات الخيرية . ودارت على الألسنة عبارة « المائدة الخضراء » كناية عن لعب القمار . وأقبل كثيرون على الرهان فى سباق الخيل . ولم يتخلف كاتب ولا شاعر عاش فى تلك الفترة إلا تناول موضوع القمار حتى ليمكننا أن نجمع مايؤلف مجلدا ضخما مما قيل فى هذا الباب ، هذا علاوة على المسرحيات الكثيرة التى ألفت أو ترجمت ، وكلها تبين مضار القمار بأوضح عبارة ، وأفصح إشارة . قال إمام[1] العبد :

راح يلهو وجاء يبكى الديارا	رب دمع يكاد يشعل نارا
كان أغنى الأنام فى الدهر ليلا	فغدا أفقر الأنام نهارا
أيها السائر الكثير الأمانى	بين أعدائه وقيت العثارا
إن من يغرس الأمانى جهلا	بين جنبيه لا يذوق ثمارا
رب خمر تضىء كالنور فى الكأ	س لعين وتطفىء الأعمارا
بعت فى حلبة الرهان ضميرا	وجلالا وعزة ووقارا
ليت شعرى ماذا جنته الليالى	فتذم الزمان والأقدارا ؟
تنشد المال بين بؤس ونحس	وتود الغنى وتهوى القمارا
أنت أنكى من الجراد بمصر	ولو ان الجراد سد القفارا
إن من يأكل النبات اضطرارا	مثل من يأكل النضار اغترارا

فى هذه القصيدة صورة شاب كان غنياً ، يعيش سعيداً ، آمناً مطمئناً ، ولكنه لم يقنع بما يملك ، بل أراد أن يزيد ثروته عن طريق الكسب الحرام ، فمال إلى القمار ، تحدوه هذه الأمانى الكاذبة ، فلم يلبث أن خسر ثروته ، ورجع

---

(١) المقطم فى ١٨ — ٥ — ١٩٠٥ .

يبكى وينتحب ، ويلعن الزمان ، ويسخط على الدنيا ، وكان جديراً به أن يلوم نفسه ويؤنبها ، لأن تفكيره السقيم هو الذى أوصله إلى هذه النتيجة المؤلمة .

٣

النقائض السياسية

لما اتسعت دائرة الحركة الوطنية إثر إنشاء الترام ، انقسم الشعراء فى مصر إلى فرقتين : الفرقة الحميدية ، وهى التى تنظم قصائد المدح فى السلطان عبد الحميد ومدح نائبه فى مصر الخديو عباس ، والفرقة الاحتلالية التى كانت ترد على الفرقة الأولى وتنقض قصائدها بما تنظم فى مدح ملك الإنجليز ، ومدح نائبه كرومر . وكان احتفال المصريين بعيد جلوس السلطان عبد الحميد ، يقابله احتفال الاحتلاليين بعيد جلوس ملك الإنجليز. وبعبارة أدق إن مدح عبد الحميد أو عباس أو احتفال المصريين عموماً بعيد عبد الحميد ، لم يكن هدفاً فى حد ذاته ، وإنما كان الغرض منه إغاظة المحتلين وأعوانهم ، وتحديهم والتشنيع عليهم . ومن الأمثلة لهذه النقائض قصيدة[1] أحمد شوقى التى مدح بها عباس ، والتى يقول فيها :

ما كنت أوثر أن تطول سلامتى	فأرى المعالى حلية الأوغاد
وأرى الأعادى فى البلاد مواليًا	وأرى الموالى فى البلاد أعادى
وأيادى المتقدمين مساوئًا	ومساوىء المتأخرين أيادى
وأرى بنى وطن تفرق بينهم	أيدى العداة وألسن الحساد

(١) المؤيد فى ٢٨ — ٤ — ١٨٩٨

وأشد من وقع المصاب على الفتى ذكر المصاب على لسان عادى
عباس إنك للبـــــلاد وإنه لم يبق غيرك من يقول بلادى
لولاك لم نعـــر المواسم نظرة كلا ولم نقبل على الأعيـــاد
شطت بنا فلك الأمور فكن لنا فى بحر حيرتنا المنار الهـــادى
وكن السعود الطاردات نحوسنا الغاديات بنفحة الإمـــداد
يأتى الشقاء على البـلاد وينقضى وشـــقاء مصر مؤبد الآباد
وأرى مصيبة كل قوم غـيرهم وأرى مصيبتنا من الأفراد
من كل أرعن كاذب لايرتجى لعـداوة يوماً ولا لوداد
مــلأت ملابسه المظاهر مثلما ملأ الدخان جوانب المنطاد

ومنها :

مولاى وابق الدهر أسلم ســالم وتلق أعيـــاداً على أعياد
تؤتى رعيتك الوفية سؤلها وتبلـغ الأوطان كل مراد
وتطهر السودان من آفاته وتقيمه فى الأمن والإسعاد
وتبيـد ملك الذاهبـين بعزه الصـائرين بسوقه لكساد
سلطت فى تأديبهم رعـداً على رعـد وجلادا على جلاد
فاندك بغيهمو ببغى مثـــله والله للباغين بالمرصـــاد

ما كادت صحيفـة المؤيد تطلع بهذه القصيدة حتى تلقفتها الأيدى ، وأصبحت حديث الناس فى الأندية والمجالس ، لما فيها من تعريض بالمحتلين وأعوانهم وحينئذ شمرت الفرقة الاحتلالية عن سواعدها ، واستعدت للرد ، ومهدت لذلك بمقالين نشرا بصحيفة المقطم فى ١٨٩٨/٤/٣٠ ، المقال الأول تحت عنوان « السياسة فى الشعر » وقد جاء فيه « إذا ارتـكب الشاعر الخطأ

عمدا فذم أهل القطر كله لـكى يمدح أميرهم، وتشاءم بالخراب والدمار إلى الأبد ، وهو يرى دلائل النجح والإسعاد قد أنطقت الأبـكم ، وأسمعت الجماد ، فلا ندرى كيف نلتمس له عذرا . فقد قرأنا له أمس تهنئة للحضرة الخديوية بعيد الأضحى قال فيها :

عباس إنك للبلاد الخ . . .

تالله إننى لم أتم تلاوة هذا البيت حتى قلت فى نفسى : هل هو متملق أخلا البلاد من الوطنيين ، والحـكومة من المخلصين حتى قال: وأرى الأعادى فى البلاد مواليا . . .

هكذا تنظم السياسة فى سلك القريض ، وهكذا يعرب شاعر المعية عن آراء رجالها ، وهكذا يصف هو ورفاقه رجال البلاد الذين اشتهروا وارتقوا فى عهد أميره » . والمقال الثانى تحت عنوان « مصيبتنا ومصيبة غيرهم » وهو لا يختلف عن المقال الأول . وأخيرا انبرى الشاعر عبد العزيز عزت فنقض قصيدة شوقى بقصيدة نشرتها المقطم فى (٦ ـ ٥ ـ ١٨٩٨) وهى :

نور الحقيقة للبرية بادى والحق لا يخفى على الرواد
لـكنما العى استمال ذوى الهوى والغى يعمى أعين الأضـداد
سيان عندهمو القبيح وضـده ولذا استوى بكّاؤهم والشادى
والنفس تعوزها قيود الفضل ما خشيت رواشق أسهم النقاد
فمتى سمعت بأن نجحا مرة صدع القلوب وفت فى الأعضاد؟
والدهر إن هنا فريقا أصبحت فئة لذاك قريحة الأكباد
جهل تقادم عهده فسرت لهم أضراره فى النسل والأولاد

حتى إذا وضح السبيل ترفعوا عن أن يلبوا داعى الإرشاد
وإذا أضل الله أفئدة على علم فليس يرى لها من هادى
وإذا ابتلى الله البلاد بمقلق كانت بليتها من الحساد
إن الفراعنة الألى زرعوا الأذى فى الأرض قد بادوا إبادة عاد
من بعدما ابتزوا النفيس وواصلوا حصد النفوس بمنجل الإفساد
والناس تصعق ضيقة ورءوسهم للمرهقين تشج كالأوتاد
كادوا ونير الذل فى أعناقهم يتعثرون بأثقل الأصفاد
والموت أشفى والحياة مذمة فى الإضطهاد لأنفس الأمجاد
ما كان إلا ريثما عظم البلا وأتى الزمان لهم بخير عماد
أحيا مواتهمو بينبوع الحيا لا تعجبوا لتزاحم الوراد
فانشر نضارك دون خوف مصادر فى حالة الإصدار والإيراد
وأفلح حقولك آمنا ومتمتعا بنتيجة الإتعاب والإجهاد
هذى بلاد الله يورثها الذى يختار ، ما أحد يقول بلادى
والأرض كانت قبل قاعا صفصفا وجميعها ليست بذات حصاد
والناس تتركها مخافة جائر لا تستطيع ترد عنها العادى
وتود أوجرة الذئاب لعلها تجد الحنان بمرتع الآساد
والفوز فى الدنيا على جيش الصعا ب بحكمة الرؤساء والقواد
جاءت براهين الحوادث جمة عند الكبار صحيحة الإسناد
لبست لها السودان ثوب البيض إذ لقيت سوادا ساد فوق سواد
ولطالما امتنعت على طلابها زمنا وقل تردد العواد
لولا إساءات الزمان لأصبحت تلك المنازل كعبة القصاد

خاض الكماة غمارها وتدرعوا ليل العجاج بنور قدح زناد
لا غرو أن تدع السيوف قلوبهم بالخوف ملأى وهى فى الأغماد
لا يطمن الجهال فى عزماتهم فهى الجسام تجل عن تعداد
لولا مناجزة الرجال كما رأوا بإجاجة الإرغاء والإزباد
بمظاهرات كلها عرضية لم تجن غير زيادة الأحقاد
ومناوىء الصعب المراس سفاهة بالقول ليس له صحيح مبادى
يرجون إدراك المحال وإنه لا يرتجى آل الضحى للصادى[1]
فعسى غيابات السخائم تنجلى وكفى من النوام طول رقاد

وازن عبد العزيز عزت بين حالة البلاد قبل الاحتلال وبعده . فقال إن الناس لم يكونوا يأمنون على أملاكهم وأموالهم وأرواحهم ، بل كانوا يهربون ويختبئون فى الكهوف والمغارات مع الوحوش . وأن البلاد خربت بعد أن هلك الحرث والنسل ، بفعل المظالم الكثيرة التى وقعت على الشعب . وقد تبدلت هذه الحال بعد الاحتلال ، فأصبح الإنسان آمنا على حياته وأملاكه وأمواله ، متمتعا بالهدوء والطمأنينة . وأن مصر بلاد الله يورثها من يشاء من عباده ، وليست بلاد عباس ولا غيره . وأن السودان كان قد عمه الخراب ، وها هم الإنجليز يجدون فى القضاء على دولة الدراويش ، ويعيدون إليه الأمن والرخاء. وقال إن الذى يطعن فى أعمال الإنجليز ، أو ينتقص من قدرهم ، أو يبخسهم حقهم ، إنما هو جاهل ، أو جاحد ، لا يصح أن يلتفت إليه .

والرد على هذه المزاعم ليس بالأمر العسير ، فقد جاء[2] فى تقرير كرومر

---

(١) آل الضحى : سراب الضحى . الصادى : العطشان

(٢) المقطم فى ٢٥ ـ ٣ ـ ١٨٩٦

عن سنة ١٨٩٥ ما نصه « استدان فلاح من أهل الوجه القبلى ١٠ ج من مداين أوربى ، وكتب له سندا بمبلغ ١٥ ج وقال إنه دفع إليه كل سنة ٥ ج على ثلاث سنوات . وبعد انتهاء السنة الثالثة طالبه المداين بالخمسة عشر جنيها ، فأبى دفعها ، قائلا إنى دفعت ١٥ ج ، ولكن لم تكتب بينهما أوراق غير السند المذكور آنفا ، فلذلك لم يمكن المديون إثبات قوله . فتوعده المداين بإقامة القضية عليه . وإقامة القضية تكون بمصر ، على بعد ٤٠٠ ميل من مكان الدائن والمدين . فاختار المدين أن يبيع منزله على الدخول فى قضية ، فاشترى الدائن المنزل بالثمن الذى عينه ، وهو ٦١ جنيها ، وأسقط منها ١٥ ج قيمة الدين ، ١٤ ج رسم البيع ونقل الملكية ، ودفع إليه الباقى وقدره ٣٢ ج ، فيظهر مما تقدم أن المدين اضطر أن يبيع بيته بمبلغ لا بد أن يكون أقل من قيمته الأصلية ، ودفع ٣٤ جنيها فائدة ورسوما شرعية على دين قيمته ١٥ جنيها لمدة ثلاث سنوات » .

« وأيضا إن رجلا من أهل مديرية المنوفية أقيمت عليه الدعوى فى دين قدره ٤٢٣١ قرشا صاغا ، فبلغت نفقات القضية وحدها ٤٩٢٠ قرشا صاغا . وأمثال ذلك كثير » .

هذا ما ذكره كرومر فى تقريره وهو لا يحتاج إلى تعليق . جاء فى صحيفة المؤيد (١٤ – ١٠ – ١٩٠٠) ما نصه « شاهدت على ضفاف البحر الصغير فى سفرى إلى المنصورة مزارع واسعة ، وأبنية فخيمة ، وأجرانا تحوطها الخيرات والبركات . فقيل لى إنها لرجل من شطار اليونان ، لم يكن رأس ماله منذ بضع سنوات أكثر من سبعين خنزيرا ، أخذ لها فدانا من الأرض ترعى فيه وترتع فصار يبيع من نتاجها ويقرض صغار الفلاحين حوله ، ثم تعداهم إلى كبارهم .

وهكذا حتى ضم إلى حوزته جملة قرى وبلاد ، أكثر أهلها من مدينيه . وأكثر أراضيها ـ مما لم يملكه ـ مرهونة له . فهى وهم فى الحقيقة ملكه وعبيده الذين يشقون ليسعد ، ويفتقرون ليغنى ، ويضنون ليشتد » .

وقالت صحيفة المؤيد (٢٤ ـ ١٠ ـ ١٩٠٠) ، « ترك الإنجليز كل مراب داخل البلاد يفترس بجماعة من الفلاحين المساكين ، غير هياب لسلطة ، ولا خائف من قانون ، مع إجماع كل الناس على أن هؤلاء المرابين ما أطغاهم إلا إهمال السلطة القانونية ، حتى كأنهم فى بلاد فوضى ، لاحكومة لها . لولا الإهمال ما كان الميسر ومحلات الخلاعة المتناهية تنهب جيوب الناس وعقولهم نهبا على رءوس الأشهاد ، ومن وراء هذه المحلات تؤخذ العزب ، وتشترى الألوف المؤلفة من الأفدنة الزراعية . وكل هذا الإهمال جره اتخاذ الإنجليز محاباة الأجانب عضدا لهم ، لتأييد قدم احتلالهم فى هذا القطر الأسيف . فما أسعد الأجنبى فى مصر ، وما أشقى المصرى فى بلده على أيدى الإنجليز » .

تجاهلت الفرقة الاحتلالية هذه الحقائق المؤلمة ، واستمرت فى ردها على الفرقة الحميدية . مثال ذلك قول أحمد نسيم مهنئا كرومر بعودته من الصعيد ، بعد زيارة خزان أسوان :

سر حيث شئت يحفك الإكرام ... فبلاد مصر تحية وسلام
أحييت مائتها وصنت حقوقها ... فلذاتك الإجلال والإعظام
وطفقت تفتقد البلاد وأهلها ... حتى استقام العدل والحكام
ساويت بين كبيرها وصغيرها ... بالحق فالإنصاف منك لزام
وحفظت عرش أميرها من بعدما ... لعبت به فى الحادثات طغام

وقطعت أيدى الظلم بالقانون وال ... ـقانون فى كف الحكيم حسام

ونشرت دستور العدالة بيننا[1] ... فالأمن فوق رءوسنا أعلام

لا حاكم يقسو ، ولا متعنت ... يهفو ولاحق الضعيف يسام

فتصافح الأهلون فى بحبوحة ... يحنو على آرامها الضرغام

يا ناصر الإصلاح ، بل يامنقذ ال ... ـفلاح من جور له آلام

مالى سوى نشر الحقيقة بغية ... وسوى الحقيقة لو يرام حرام

إنى أخاطب فيك دولتك التى ... عنت الوجوه لها وذل الهام

آليت أن أطرى خلالك ماحييـ ... ـت فإن أمت فلتشكرنك عظام

سافرت للخزان تقصد نفعنا ... كرما وآثار الكرام جسام

ورجعت بالبشرى فهنَّأ بعضنا ... بعضا بخير ما به إيهام

هذى ديار ترتجيك لنفعها ... ولأنت نعم الفاضل المقدام

أقوالك الأفعال فى إصلاحها ... وكلام غيرك فى البلاد كلام

سافر وعد، واسمح وجد واحكم وسد ... واعمر وشد ، وارشد فأنت إمام

فانظر كيف أسند الشاعر إلى كرومر من الصفات والمناقب والفضائل ما يجعل الخديو وكأنه لا وجود له ، فكرومر أحيا الأرض بما وفر لها من وسائل الري . ونشر العدل ، فتساوى الكبير والصغير أمام القانون . وهو المصلح ، ومنقذ الفلاح مما كان يتعرض له من العسف والجور . ولذلك فمن الواجب أن يكون لكرومر الحكم والسيادة ، فلا حاكم ولا سيد إلا هو .

---

(١) المقطم فى ٢٢ ـ ٢ ـ ١٩٠٢

ولقد ظهر من النقاد من عابوا شعر المديح ، وكان طعنهم موجها إلى الفرقة الحميدية ، وعلى الأخص إمامها أحمد شوقى . ولهؤلاء نقول إن الذين مدحوا عبد الحميد لم يروه ، ولم يخصهم منه شىء ، وكذلك الذين مدحوا عباس . ولقد كان فى استطاعة أحمد شوقى أن يلتحق بوظيفة حكومية ، وأن يصل إلى ما وصل إليه إسماعيل صبرى . وقصائد الفرقة الحميدية لم تكن مدحا خالصا ، وإنما كان يسودها الهجوم على الاحتلال وأعوانه . وقد كان المدح الحميدى فى ذلك الوقت ضرورة وطنية للرد على مزاعم الفرقة الاحتلالية .

* * *

ولما جاء أحمد عرابى من المنفى ، ومدح الاحتلال وأطراه ، هجاه أحمد شوقى بقصيدة مطلعها :

صغار فى الذهاب وفى الإياب أهذا كل شأنك يا عرابى ؟

فرد[1] عليه محمد توفيق بقصيدة جاء فيها :

إيابك سيدى خير الإياب فأهلا مرحبا بك يا عرابى

ومنها :

ولكن ظن فيك السوء بعض وهذا البعض أولى بالسباب
حكومة سؤدد وسراة علم كعهدك إذ تحييك الطوابى
وإذ نازلت أبطالا شدادا تطاردهم ركابا فى ركاب
ستنظر إن رفعت بمصر طرفا رجال الوقت من خير الصحاب
ومصر بالسرور تطيب نفسا إذا ما قيل عاد لها عرابى

---

(١) المقطم فى ٢ ــ ١٠ ــ ١٩٠١ .

وهكذا كانت كل فرقة تترصد الأخرى وتتربص بها الدوائر . ولقد أسف بعض الشعراء الاحتلاليين ، وجاءوا فى نقائضهم بالعبارات النابية والألفاظ القبيحة . مثال ذلك أنه لما نظم أحمد شوقى قصيدته التى مطلعها :

مال واحتجب وادعى الغضب

رد عليه شاعر لم يذكر اسمه فقال[1] :

قام وانثنى وادعى الغنى
فهو كلما قال لى أنا
قلت جاهل يعشق الثنا
إنه فتى طالما زنى
نحو فوقه وهو تحتنا
فهو إن نأى وهو إن دنا
كله بلا كله عنا
إن رأى فتى قام وانحنى
ألخ . . .

فى هذه الأبيات هجاء فاحش ، تشمئز منه النفس ، ويأباه الذوق ، ويجفوه الطبع السليم . وهو أشبه بما نسمعه فى الشوارع من الأوشاب والسفلة الذين لاخلاق لهم . وانظر إلى مانشرته الصاعقة فى (٢ ـ ٤ ـ ١٩٠٤) تحت عنوان « اقتراح » « تقترح الصاعقة على أدباء مصر فى هذا العصر أن يبعثوا بتأويل هذا البيت المسجل فى ديوان شاعر الأمير :

---

(١) الصاعقة فى ٢ ـ ٤ ـ ١٩٠٤ .

مولاى عبـدك طائع فافعل به ما أنت فاعل

ولمن يصيب المرمى فى التأويل جائزة إرسال الصاعقة مجانا ، مادام له ولهـا عمر » .

* * *

ومن شعراء الفرقة الحميدية الذين أصابهم الهجاء المر، إمام العبد . ومما قيل[1] فى هجائه :

فى السوق بعت اليوم عبدا ساقطا	ورجعت أشعر بالأذى للشارى
فأرحت من شؤم ابن داية منزلى	أو ماسمعت نعيبه فى دارى ؟
ونفضت من عار العبيد يدى التى	قد لوثت منهم بقبح العار
وكحلت عينى بالثرى وتركتها	رمداء خوف عمائها بالقـار
ما كنت أوثر أن أكون مصاحبا	للعبد لولا خدمة الزوار
قدر العبيد ولست أعرف قدرهم	إلا على الأبواب والأستار
خانوا افتروا فجروا بغوا وتسابقوا	لخيانة الأشراف والأحرار
فطروا على بث الوشاية فى الورى	واستؤجروا لإباحة الأسرار
وتوشحوا ثوب القيادة والخنا	وتسربلوا بمذلة وصغار
أأقول عبد الله للعبد الذى	يمسى ويصبح وهو عبد البار[2] ؟
يا أحقر العبدان حسبك تدعى	شمما وأنت قرارة الأقذار
لم تدعى علما وتزعم بيننا	فضلا وأنت مسبة الأغرار ؟
أيكون ذا أدب ورب فصاحة	من بيع بالدرهام والدينار ؟

(١) الصاعقة فى ٥ ـ ٣ ـ ١٩٠٦ (٢) البار : الحانة

قد يحبسون السارقين وليتهم   جعلوا السجون لسارق الأشعار
أنسيت فى بولاق فراشا سطا   ونزا عليك بمثل زند وارى
مازلت تركب كل شىء قائم   حتى اجترأت على ركوب «الصارى»

فى هذه القصيدة تعريض قبيح بإمام العبد من ناحية لونه ، وأنه ينتمى إلى جنس العبيد ، وأنه كان فى حوزة الشاعر فباعه لشؤمه وسوء خلقه وتخلص منه بهذه الطريقة ، فبات مرتاح الخاطر ، هادىء البال ، ولكنه شعر بأنه ألحق ضررا بمن اشتراه . ثم جاءه من ناحية أخرى، فإمام العبد كان مدمنا على شرب الخمر ، وقد هجاه بهذا ، ثم اتهمه بسرقة الشعر . وأخيرا طعنه فى عرضه .

ويدخل فى هذا الباب القصائد الكثيرة التى قيلت فى « عام الكف » و « عام الكفء » فقد كانت تخفى وراءها أغراضا سياسية . وقد عرضت لهذين العامين وما قيل فيهما من شعر فى كتابى « فصول ممتعة » ومما قيل فى عام الكف تحت عنوان « بعض[1] مناقب إبراهيم » والمراد إبراهيم المويلحى « اشتهر بسلوكه طريقا غير طريق المؤمنين ، وأنه يبيت أكثر لياليه فى الحمامات ، ويقضى غالب أوقاته بين غلمان الأوتيلات لمداواة الداء ، ولسان حاله يقول : دع عنك لومى فإن اللوم إغراء . وكان السواد الأعظم من أهل الأستانة حانقا عليه ، ولا يوجد فيهم واحد إلا وفى فؤاده أثر من أذاه ، فاتفقوا على أن يتعقبوه بالضرب ، ثم يجبوه ، فتنقطع آلة خبثه ، ويستريح الناس من شره » .

* * *

(١) الكمال فى ٢١ — ١١ — ١٩٠٢ ، مات إبراهيم المويلحى سنة ١٩٠٦

ويدخل فى هذا الباب أيضا مانظم من الهجاء فى صحيفة المقطم الاحتلالية . مثال ذلك مانشر[1] تحت عنوان « عزاء المقطم » بإمضاء ، ج ، وهو :

اليوم ينتحر المقطم	ويقوم فى مثواه مأتم
ويشق صفحة خده	ندما ولات زمان مندم
كم حارب الوطن العز	يز وباع صالحه بدرهم
ولطالما قلب الحقـــا	ئق فى سياسته وأوهم
متعثرا فى رأيه	متورطا فى كل مأثم
ينساب فى وسط الحوا	دث مثل ما ينساب أرقم
فيحل من أقوى المرا	فق والمراشد كل مبرم
ويثير من بين المشا	كل عثيرا بالشر أقتم
وإذا ارتدى ثوب النصو	ح فإن منه الشهد علقم
ما باله متـــــــذبذبا	ومعددا فى كل مأثم
إن كان سوريا فما	أقسى عوامله وأظلم
إن كان مصريا فلم	فى الـكيد أنجد ثم أتهم
أو كان عبد الإحتلا	ل فـكيف ينصحناو يرحم
مهلا فقد برح الخفا	ء وأسفر السر المـكتم
واستنزل المقدور صر	عته وأرهقه المحتم
ياللتصـــــبر والعزا	ء اليوم قد سقط المقطم

نشرت هذه القصيدة بعد إقالة كرومر من منصبه . وفيها يظهر الشاعر

(١) خيال الظل فى ١٨ ـ ٤ ـ ١٩٠٧

الشماتة فى صحيفة المقطم ، ويشهر بها وبموقفها من المصالح الوطنية ومناصرتها للمحتلين .

وكانت قصيدة أحمد شوقى التى نظمها فى وداع كرومر مسك الختام فى حياته كأحد شعراء الفرقة الحميدية ، إذ أن سياسة الوفاق التى اتبعها غورست مع الخديو انعكست على شاعره فكف عن الخوض فى مهاجمة الإنجليز ، وبذلك فقدت هذه الفرقة أهميتها ، وظهرت الفرقة الوطنية التى تهاجم الخديو والإنجليز ، ومن شعرائها : على الغاياتى ، وقد حكم عليه بالحبس سنة بتهمة الطعن فى الخديو ، وعبد الحليم المصرى ، وقد حكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر بنفس التهمة . وقد اشتد الصراع بين الفرقة الوطنية والفرقة الاحتلالية ، ثم قامت الحرب، فاختفت الفرقة الوطنية ، وإلى هنا ينتهى كلامنا .

الأدب الإرشادى

عز على فريق من المفكرين أن يقفوا متفرجين ، بينما الأجانب يتوغلون يوما بعد يوم فى مرافق البلاد الاقتصادية ، وينهبون ثروتها فى غير رحمة ولا شفقة . لذلك أخذوا يكتبون المقالات الضافية ، مشخصين الداء ، واصفين الدواء . مبصرين ومرشدين ، محفزين الهمم ، مستنهضين العزائم ، مطاردين اليأس ، باعثين الأمل فى الصدور . أى أنهم كانوا يهدفون إلى خلق المواطن الصالح ، الذى يكافح ويناضل ، ويجد ويجتهد فى ميدان العمل والنتاج حتى يلحق بالأجنبى إن لم يتفوق عليه . ولما كان المصريون يميلون إلى الإسراف فى الإنفاق ، الأمر الذى يضطرهم إلى الاستدانة من المرابين ، وكلهم من الأجانب ومن ثم يفقدون أملاكهم ، فقد كان الكلام على قيمة المال وضرورة المحافظة عليه ، من أهم أغراض الأدب الإرشادى فى العصر الترامى . مثال ذلك ما جاء فى مجلة المنار (١٤ ـ ٦ ـ ١٨٩٨) تحت عنوان « القوة فى المال » .

« نعم المعين على المروءة للفتى   مال يصون عن التبذل نفسه
لا شىء أنفع للفتى من ماله   يقضى حوائجه ويجلب أنسه
وإذا رمته يد الزمان بسهمه   غدت الدراهم دون ذلك ترسه

المال ، ولا أزيد القراء به علما ، من أعظم أسباب السعادة والرفاه ، وبواعث السؤدد والمنعة والجاه . بل هو المحور الذى تدور عليه الأعمال ، وتناط به الآمال ، وتحط عنده الرحال ، وتوجه إليه همم الرجال ، فلا يستغنى عنه فى حال من الأحوال .

لابد للمرء من مال يعيش به ... وداخل القبر محتاج إلى الكفن

بالمال تقضى الحاجات ، وتنال الرغبات ، وترد اللهفات ، وتضاعف الحسنات ، وتستجلب الدعوات ، وتعمل الخيرات ، وترفع الدرجات ، فهو زينة الحياة ، وغاية الغايات .

شيئان لا تصلح الدنيا بغيرهما ... المال تصلح منه الحال والولد
زين الحياة هما لو كان غيرهما ... كان الكتاب به من ربنا يرد

والفقر ـ أعاذنا الله وإياكم منه ـ هو البلاء الأكبر ، والموت الأحمر :

إذا قل مال المرء قل حياؤه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لا يدرى وإن كان حازما ... أقدّامه خير له أم وراؤه

كم صير العزيز ذليلا ، والشريف وضيعا . وقد ورد « كاد الفقر أن يكون كفرا » و « ماضرب العباد بسوط أوجع من الفقر » .

غالبت كل شديدة فغلبتها ... والفقر غالبنى فأصبح غالبى
إن أبدِه أفضح وإن لم أبده ... أقتل فقُبِّح وجهه من صاحب

وفى الحديث الشريف « لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه ، ويؤدى به أمانته ، ويستغنى به عن خلق ربه » ومن كلام الإمام الثورى : المال فى هذا الزمان عز المؤمن . ومن كلامه أيضا : المال سلاح المؤمن فى هذا الزمان » .

«هذا قليل من كثير مما قيل فى فضل المال وفوائده ومنافعه بالنظر للأفراد . وأما بالنظر للأمة ففوائده أعظم وأجل ، وفقده أدهى وأمر . قال حكيم : لا دولة بغير رجال ، ولا رجال بغير مال ، ولا مال إلا بالعمارة . فالمال هو

ميزان قوة الأمة ، وداعية مجدها واستقلالها ، خصوصا فى هذا الزمان الذى أضحى مدار الأعمال فيه على المال . إذ بالمال تسد الثغور ، وتشاد القلاع . بالمال تجمع الجموع وتحشد الجيوش وتبتاع العدد من أسلحة وذخائر . فالقوة كل القوة فى المال ، ولا حياة للأمة بغير مال ، ولا وجود ، ولا استقلال » .

« ومعلوم أن موارد الكسب ثلاثة : الزراعة ، والتجارة ، والصناعة . وقوامها كلها بالتوفير والاقتصاد . أى بإتقان أساليب الكسب والارتزاق وتوفير الثروة العمومية ، وإصلاح التجارة والزراعة والصناعة على الطرق التى يجرى عليها الغربيون ، ورائد ذلك كله العلم الصحيح » .

ولكن جمع المال لا يجب أن يكون الهدف منه حفظه فى الخزائن ، بل يجب أن يستغل فى المشروعات التى تعود على الأمة بالنفع الجزيل . جاء فى المقال المتقدم « ومن يحرز المال فى صناديق الحديد ، ويمسكه عن كل مشروع مفيد ، وهو يرى بلاده تباع للدخلاء ، وأزمة ثروتها تتنازعها الغرباء ، وأبناءها منغمسين فى الترف ، وبناءها على شفا جرف ، فهو الخاسر المغبون ، والخائن الملعون ، والأخرق المجنون . فالوطن الوطن أيها المصريون . جانبوا البطالة والكسل ، وأجيبوا داعى العلم والعمل . تعاونوا على البر والتقوى ، وتمسكوا من الحزم بالسبب الأقوى » .

والحقيقة إن المصريين لم يكونوا مقصرين ، فقد نشرت المقطم فى (١٨ ـ ٤ ـ ١٨٩٦) خبرا هذا نصه « أحضر سعادة سيوفى باشا آلة لنسيج الأقمشة المعروفة بالبفتة ، وقد وضعت الآلة المذكورة فى تفتيش مسطرد ، وجربت بحضور الجناب الخديوى ، وجمهور من كبار الموظفين ، فنجحت نجاحا عظيما » . ولكن الإنجليز الذين كانوا يحاربون كل فكرة لإقامة الصناعات ضغطوا على

الحكومة حتى أصدرت قانونا ينص على أن يحصل على الخيوط والمنسوجات والأقمشة وسائر المصنوعات القطنية المشغولة فى القطر المصرى ؛ رسم بحسب قيمتها ، يعادل رسم الجمرك الذى يحصل على المصنوعات المماثلة لها ، الواردة من الخارج . قالت صحيفة المقطم فى (١٩ ـ ٤ ـ ١٩٠١) « أما الشكوى المادية فمن الأمر العالى الذى صدر بالأمس ناهيا عن إعفاء المعامل القطنية التى تنشأ فى هذا القطر من الدخولية أو الرسوم الجمركية ، حاتما بمساواة مصنوعاتها بالمصنوعات الأجنبية المماثلة لها فى ذلك الرسم » .

« فظاهر المراد من هذا الأمر العالى أن الحكومة تأبى أن تسهل على سكان بلادها إنشاء معامل لغزل القطن ونسجه ، مضارعة للمعامل الأجنبية ، وتميزها على غيرها حتى تسبقها فى ميدان المباراة والمناظرة . ولما كان معظم المغزولات والمنسوجات القطنية تأتى هذا القطر من المعامل الانجليزية ، فالذى يتبادر إلى الذهن أن الحكومة المصرية حالت دون نجاح الصناعة المصرية حذرا من تعطيل المعامل الانجليزية » .

فلم يكن فى طوق المصريين أن يتحركوا مع وجود الاحتلال الذى يضع الأغلال فى أقدامهم وأيديهم ، والعراقيل أمامهم .

* * *

ومن الأدب الإرشادى قول حافظ إبراهيم :

أنابتة العصر إن الغريب ... مجد بمصر فلا تلعبى

يقولون فى النشء خير لنا ... وللنشء شر من الأجنبى

أفى الأزبكية مثوى البنين ... وبين المساجد مثوى الأب ؟

وكم ذا بمصر من المضحكات ... كما قال فيها أبو الطيب

أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب
وقالوا دخيل عليه العفا ء ونعم الدخيل على مذهبى
رآنا نياما ولما نفق فشمر للسعى والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب
ألفنا الخمول ويا ليتنا ألفنا الخمول ولم نكذب

وهذا إرشاد عن طريق التوبيخ والتعنيف ، ليكون أوقع فى النفس ، وأشد أثرا على السمع . فحافظ يخاطب الشبان ، ونفسه تفيض بالألم والحسرة ، لأنهم عاكفون على اللهو واللعب ، بينما الأجانب يجدون فى امتصاص ثروة البلاد . ويقول إن هؤلاء الأجانب ماشجعهم على ذلك إلا كون المصريين لاهين ساهين ، فلا لوم على الأجانب فيما يحصلون ، وإنما اللوم كل اللوم علينا نحن المصريين الذين أتحنا لهم الفرص . ويطلب من بنى وطنه أن يستيقظوا من سباتهم ، وأن يلحقوا بالأجنبى فى السعى المتواصل . قال :

عار على ابن النيل سباق الورى مهما تقلب دهره أن يسبقا
من رام وصل الشمس حاك خيوطها سببا إلى آماله وتعلقا

وقال حافظ من قصيدة :

وهل فى مصر مفخرة سوى الألقاب والرتب ؟
وذى إرث يكاثرنا بمال غير مكتسب
وفى الرومى موعظة لشعب جد فى اللعب
يقتّلنا بلا قود ولادية ولا رهب
ويمشى نحو رايته فتحميه من العطب ؟

فقـــل للفاخرين أما | لهذا الفخر من سبب
أرونى بينكم رجلا | ركينا واضع الحسب
أرونى نصف مخترع | أرونى ربع محتسب
أرونى ناديا حفــلا | بأهـل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم | من التعليم والكتب ؟
وماذا فى مساجدكم | من التبيان والخطب ؟
وماذا فى صحائفكم | سوى لتمويه والكذب ؟
حصـائد ألسن جرّت | إلى الويـلات والحرَب
فهبـوا من مراقـدكم | فإن الوقت من ذهب
فهـذى أمـة اليـابا | ن جازت دارة الشهب
فهامت بالعـلا شغفـا | وهمنـا بابنـة العنب

فى هذه القصيدة يبدو حافظ ساخطا على قومه ، ناقما عليهم إهمالهم وكسلهم وانصرافهم إلى اللهو والعبث . ولذلك أخذ يقرعهم ويعنفهم تعنيفا شديداً . ولم ير شيئا يعجبه ، لا فى المدارس ، ولا فى المساجد ، ولا فى الصحف ، ولا فى المجتمع بصفة عامة . ثم ضرب المثل بالرومى الذى يقدم من بلده خاوى لوفاض فيجد حتى يجمع ثروة طائلة . ثم أشار إلى نهضة اليابان وانتصارها فى حربها ضد روسيا سنة ١٩٠٥ ، مما أثار إعجاب العالم بها . وتمنى لو أن مصر بلغت شأو اليابان ، ولكن كيف يتم ذلك مع وجود الاحتلال ؟

* * *

أما الإرشاد إلى طلب العلم ، وبيان مزايا الرجل المتعلم ' والمرأة المتعلمة ' والشعب المثقف ' فلم يتخلف عنه كاتب أو شاعر فى العصر الذى ندرسه . قال

أحمد شوقى ، مخاطبا سعد زغلول ناظر المعارف ، من قصيدة نظمها على لسان المطرية [١] سنة ١٩٠٧ .

يا ناشر العـلم بهذى البلاد وفقت ، نشر العلم مثل الجهاد
بانى صروح المجـد أنت الذى تبنى بيوت العـلم فى كل ناد
بالعلم ساد النـاس فى عصرهم واخترقوا السبع الطباق الشداد
أيطلب المجـد ويبغى العـلا قوم لسوق العـلم فيهم كساد

ونحن نعرف موقف المحتلين من موضوع نشر التعليم وإنشاء المدارس . فمثلا نجد كرومر [٢] يذكر فى تقريره عن سنة ١٨٩١ « وألغيت خمس مدارس تجهيزية لعدم وجود المدرسين » فكتب مصطفى كامل التلميذ بمدرسة الحقوق فى المؤيد (١٠ - ١٠ - ١٨٩٢) تحت عنوان « اقتراح مفيد » « إن نظارة المعارف تدعى أن السبب فى عدم إمكان التوسع فى إنشاء المدارس هو قلة المال وقلة المعلمين . أما عن قلة المال فمن الممكن أن تفرض ضريبة على كل مصرى ، قدرها قرشان فى العام . وبذلك يمكن الحصول على ١٢ مليونا من القروش ، تكفى لإنشاء ٢٨٠ مدرسة . أما عن توفير المعلمين ، فمن الممكن أن تتوسع مدرسة دار العلوم فى قبـول التلاميذ ، ويمكن إنشاء مدرسة عليا لتخريج المعلمين » ولكن سياسة المحتلين كانت تقضى بإبقاء الشعب فى ظلمات الجهل ، ليسهل قياده ولا يتطلع إلى الاستقلال . قال كرومر [٣] فى تقريره عن سنة ١٩٠٠ « من رأيى أن البلاد فى حاجة إلى تكثير المدارس الصناعية . والمدارس التى أشير

---

(١) الشوقيات ١/١٣٩
(٢، ٣) المقطم فى ٤ - ٤ - ١٨٩٢ ، ١٣ - ٥ - ١٩٠١

إليها ، وأرغب فى أن أراها هى التى تعلم فيها القراءة والكتابة والحساب باللغة العربية ، مع الالتفات إلى الرياضة البدنية . ويكون الغرض الأهم منها تعليم الصنائع على حسب الأساليب الجديدة ، بشرط أن تكون بسيطة ، لا تقتضى آلات كثيرة »

« ومهما كان نوع التعليم ، ومهما كانت المدارس التى تنشأ له ، فلا بد من بذل الجهد لجعل التلاميذ يقومون بجانب من نفقات تعليمهم . إن التعليم المجانى يخرج من المدارس شبانا لو بقوا فى الدرجات التى ولدوا فيها ، وتعلموا حرفة شريفة عملوا بها ، لرأوا أنفسهم أسعد حالا وأنفع لبلادهم من أن يتعلموا ولا يروا أمامهم سبيلا للمعيشة والارتقاء إلا بالانتظام فى خدمة الحكومة . »

« ويسرنى أن أقول إن نظارة المعارف العمومية رأت مضار التعليم المجانى وقد حاولت تلافيها منذ سنوات . ففى سنة ١٨٧٩ كان عدد الذين يتعلمون مجانا لا أقل من ٩٥ ٪ من التلامذة الذين يتعلمون فى مدارس الحكومة . وفى السنة الماضية — ١٨٨٩ — كان عدد التلامذة الذين يدفعون أجور التعليم ٩٨ ١/٣ ٪ فى المدارس الابتدائية ، ٨٦ ٪ فى المدارس الثانوية . وأرجو أن يستمر هذا حتى يبطل التعليم المجانى تماما ، أو لا يبقى منه إلا شىء قليل . »

ولا يخفى ما فى هذا التقرير من المغالطة المكشوفة . فقد كانت البلاد فى أشد الحاجة إلى الأطباء البشريين والبيطريين ، وخريجى مدرسة الزراعة والمهندسخانة . وإذا كان التعليم المجانى ضارا ، فلماذا أخذت به الحكومات الأوربية ؟ والمدارس الصناعية التى يرغب فيها كرومر ، هى التى تعلم النجارة والحدادة والصناعات الجلدية ، ولا شىء غير ذلك .

وقد ذكر فى تقريره عن سنة ١٩٠٢ ، أن الأموال التى أنفقت على التعليم من بدء الاحتلال ١٨٨٢ ، ـ ١٩٠٢ بلغت ١٫٨٢٢٫٥٤٧ ج.م ، أو أقل من ١ ٪ من مجموع المصروفات العمومية .

لذلك كان موضوع التعليم موضوعا حساسا عند الشعب ، ومسألة وطنية فى الدرجة الأولى ، وعليها يتوقف مستقبل البلاد . فاهتم المفكرون والأدباء بالتحريض على إنشاء المدارس . وكان تقريع الأغنياء لتقاعسهم عن بذل المال فى سبيل نشر العلم ؛ أحد الأهداف المهمة للأدب فى العصر الترامى بنوع خاص . قال طه حسين[1] :

نرجو الرقى وكيف ترقى أمة	سلكت سبيل التيه والإضلال
عثت بحق الأمهات وأغفلت	أمر الأمومة أيما إغفـــال
لم تربهن فكن مصدر شقوة	فيهـا وداء للبنين عضـــال
ساد الذين عنوا بأمر نسائهم	وسمـوا بهن إلى مكان عالى
أبى تكون الصالحات لأمـة	رغب الغنى بها عن الإفضال
يجبى بيمناه النضار ولم يكد	حتى يجـود على الخنا بشمال
يمسى ويصبح فى النعيم وقومه	لم يظفروا من بحره ببـلال
فالجهـل منتشر تعيث شروره	فينـا وتفتك فتكة الأغوال
فى كل آونة تمـد حبـالة	فتصيد صرعى الفقر والإمحال
لادر در المـال إن لم يدخر	لبنـاء مكرمة وحسن فعـال

---

(١) مجلة الهداية ، عدد ديسمبر سنة ١٩١٠ ، وانظر طه حسين الشاعر الكاتب ، للمؤلف ص ٧٧ .

لادر در المال إن لم يدخر ... إلا لذات الطوق والخلخال
أيجود تلميذ بدرهم يومه ... عن طيب نفس غير ذات ملال ؟
ويجود مضطر بقوت عياله ... جذلان لا يصغى إلى العذال
والأغنياء على الملاهى عكف ... صرعى الملاحظ والهوى الختال
إنى لأخشى أن تصير أمورنا ... إن دام بخلهمو لأسوإ حال
شبان مصر لكم أزف تحيتى ... وإلى حميتكم أسوق مقالى
يا ويح مصر من الزمان وصرفه ... إن لم تهموا همة الأبطال
أحيوا العلوم فلا حياة لأمة ... ألقت أزمتها إلى الجهال
رقوا النساء فلا حياة لأمة ... أمر النساء بها إلى الإهمال

أكد طه حسين فى هذه القصيدة ضرورة العناية بتعليم البنات ، وقال إن الأمة لا يمكن أن تتقدم ما دام نساؤها يعشن فى ظلمات الجهالة . ثم حمل على الأغنياء حملة عنيفة ، لأنهم ينفقون بسخاء على إشباع شهواتهم ، ويضنون على التعليم فلا يساعدون فى نشره . وأخيرا خاطب الشباب ، حاثا إياهم على التزود من الثقافة بحظ وافر حتى ينفعوا وطنهم الذى يعلق عليهم الآمال .

وقال نصر لوزا الأسيوطى(١) :

بالعلم قد علت الرجال إلى الذرى ... وتسابقت لمواطن الأطيار
بالعلم ترتفع البلاد وترتقى ... وتنال ما تبغى من الأوطار
أعلوا منار العلم فوق ربوعكم ... فبه يكون لمصر خير منار

---

(١) الأدب القبطى قديما وحديثا ص ٣٢٩ ، طبع دار القومية العربية ، سنة ١٩٦٢ .

وامشوا إلى سبل العلا وتأكدوا　　أن العلاء مطيـة الأحرار

وقال فى الدعوة إلى تعليم البنات :

العلم فرض على الجنس اللطيف كما　　قد صار فرضا على شباننا النجب

الأم تحتـاج علمـا يستضىء به　　أبناؤها مثلما يحتـاج خير أب

ربوا الفتـاة تروا أمـا مؤدبة　　تعلم الطفل ما يحلو من الـكتب

لا خير فى امرأة فى البيت جاهلة　　ولو غدت من بنات العز و الحسب

هذه أمثلة لما قيل عن ضرورة نشر العلم بين الجنسين . وقد اعتمد الشعب فى هذه المرحلة على جهوده الذاتية ، ففتحت المدارس على اختلاف أنواعها . وكان الفقراء يكافحون كفاحا شديدا فى سبيل تعليم أولادهم . وساعدت الجمعيات الخيرية الإسلامية والقبطية فى ميدان التعليم مساعدة تذكر فتشكر . وهـكذا أخذ الشعب يسير إلى الأمام بخطوات ثابتة على الرغم من المحتلين . وأدرك الجميع قيمة العلم وآمنوا بمزاياه . وعلى أكتاف الطلبة قامت ثورة سنة ١٩١٩ ، وبجهودهم وصلنا إلى ما نحن عليه الآن .

الترام والأدب الشعبي

لعب وجود الترام دورا هاما فى الأدب الشعبي ، شعره ونثره . ولقى الأدباء فيه موضوعا جديدا فتسابقوا فيه . مثال ذلك قول أحدهم[1] .

دخيلك ياترامواى الهلاك اشفق بحالنا
كفانا كفانا ما أصابنا من الأجانب
مش كفايه وبغير سبب تقتل وتزهق
الأبرياء فى الفجاله آه ولا أنت هايب
روح اقصد الظاهر واهلك فيه شويه
تريحنا ويبقى له فى البلوى نايب
والا امشى بالليل فوق صور الجنينه
أهلك البطال وكل طفل سايب
ولا بالنهار حوم حول بنك الكريدى
تلتقى النسوان قاعده تجاهر بالمعايب

يبدو أن هذا الشاعر كان يسكن حى الفجالة ، فلذلك طلب من الترام أن أن يرحم أهل هذا الحى ، وأن ينقل شره إلى حى الظاهر ، أو حى الأزبكية . أما حى الظاهر فقد كان يسكنه الأجانب فى ذلك الوقت . وأما حى الأزبكية فقد كان مكتظا بأهل الفساد من كل نوع وجنس . ويبدو أن بعض النساء الساقطات كن يتخذن مكانهن المختار حول بنك الكريدى ، فتمنى الشاعر لو

(١) مجلة الدنيا الجديدة فى ٢٧ ــ ١٠ ــ ١٩٠٤ .

أن الترام توجه إلى هذا المكان ليقضى على ما فيه من الموبقات .

° ° °

وكثرت الأغانى التى يتحدث فيها العشاق إلى الترام ، ويطلبون منه أن ينطلق بهم إلى حيث يلتقون بمن يحبون من الفتيات الجميلات . مثال ذلك .

يا ترام العباسيه وديني على قصر النيل
خليني اشوف حبيبى الحلو أبو خد جميل
يا ترام العباسيه اجرى كمان شويه
أفديك يا ترام بعنيه وصلنى للحبايب

النكات والملح الترامية

كثرت النكات والملح التى تدور حول الترام ، وبعضها يمثل سذاجة الركاب ، وبعضها يمثل تهربهم من دفع أجرة التذكرة . وبعضها يمثل ما يربحه أصحاب الحانات حينما أتاح الترام للناس فرصة السهر . وبعضها يمثل البيئة الترامية الماجنة . فمن ذلك .

● قال أحدهم لعبد[1] الحميد الموارد . أخبرنى كيف يسير التراموای على القضبان ؟ فأجاب . دول معلقين فيه حمير من تحت .

● ركب عبد الحميد[2] الموارد تراموای الخليج عصر أمس ، فطلب منه الكمسارى ثمن التذكرة ، فقال له : أنا من محاسيب الجمعية الخيرية .

● نفخ التراموای فى صور الأزبكية ، فأمطر غلمانا أثمرت بهم أرض لوط .

● تألف اليوم[3] وفد من الخواجه بولاكى ، وسبيرو ، وصاحب

(١ – ٣) انظر مجلة الخلاعة من سنة ١٩٠٣ – ١٩٠٥ .

التروكاديرو ، قاصدين شركة الترامواى ، يطلبون منها استمرار القطارات لغاية الصباح مدة موسم القطن ، لسهولة المواصلات على الزبائن الكرام . فرفضت الشركة طلبهم رحمة منها بجيوب الأغنياء ، وإشفاقا بعقول الجهلاء .

● هرب الترامواى[١] إلى البحر الأحمر ليستريح أسبوعا من صدغ محرر الشرق .

● طلبت مصلحة[٢] الترامواى من الشيخ عيسى أن يكون مفتشا على التذاكر فامتنع ، وطلب منها أن يكون مفتشا على القضيب .

● تصادم[٣] رجلان أمام قهوة الشيشة ، فتسبب عن ذلك قطع شريط الترامواى ، وعطل الطريق نحو الخمس ساعات ، ونقل المتصادمان إلى المستشفى .

● الترامواى فى قطر منه . يا سيدنا المدير ، نظرة يا أمير المفتشين والهم التخين . بيغازلوا الستات من داخل العربات .

(١ ـ ٣) انظر مجلة الخلاعة من سنة ١٩٠٣ ـ ١٩٠٥ .

الأدب الشعبي

فى ظل البيئة الترامية

تناول الأدب الشعبي جميع الأغراض التى تناولها الأدب الفصيح . وقد راجت سوقه فى هذا العصر نظرا لكثرة المجلات ، وتنوع الموضوعات التى عالجها بأسلوب ساخر ، وعبارات جريئة . فما جاء فى هذا الأدب وصفا لحياة المجتمع القاهرى ، وما ظهر فيه من انحلال وفساد :

وفى الزمن ده العشق أمرو كتر والخبص زاد والبصبصه والرفق[1]
ياما بنات أحرار تبيع عرضها فى حب هلفوت ندل مهما اتفق
تلقى مره مجوزه وعازبه وكم رضيع صاحى نزل مرتفق
ودى أمور الشرح فيها يطول وانت كان واحد من العارفين

وهذه حكاية لما كانت تنشره الصحف من الفضائح الجنسية . ومعنى هذه الأبيات أن العشق كثر كثرة هائلة فى خلال العصر الذى ندرسه . وكان من الرجال من يباشر النساء معاشرة زوجية دون عقد شرعى . فإذا حملت المرأة سفاحا ألقت بالوليد فى البالوعة .

ومما جاء عن القمار[2] :

لعب القمار فينا اتقدم والأجنبي للسلب احتال
والفقر فينا متحكم وربنا عالم بالحال

(١) الأرغول ج ١٢ ، س ٥ ، ص ١٩٠ .
(٢) حمارة منيتى ع ٦ س ٣ سنة ١٨٩٩ .

الشخص منـا يكسب له — قرشين يبعزقهم ضوغرى
وبعدها يرجع عقله — والدمع من عينه يجرى
يفضل على بخته يجرى — وهو أصل اللى جرى له
وتنه من دهره يشكى — والدهر يا اخواننا ماله
احنا السبب فى اللى جانا — من دى المصايب والأحزان
ما حد غيرنا ودانا — نلعب قمار عند اليونان
الواد من الأروام يجرى — على بلادنا متشـــــــمر
وبالقمار يفضل يهرى — فينـا وهيه بتدبر
وبعد ما كان متمسكن — يصبح خواجه ويتمظرط
ومن فلوسنا يتمـكن — ويدور يهيص ويزأطط
يركب بقا فى العربيات — وينجعص جعصة قنصل
ويعيش منعم باللذات — غير متلاقيه ينهى ويفصل

هكذا كانت حالة المقامرين ، وهذه صورة مجسمة لمصيرهم المؤلم ، وهى صورة محزنة حقا . وقد وازن هذا الأديب الشعبي بين الأجنبي الذى يهاجر من بلاده لضيق ذات يده ، ويحل فى مصر ، فيفتح ناديا للقمار فيقصد إليه المغفلون ، وبعد أن يفقدوا ثروتهم ، يندمون حيث لا ينفع الندم ، ويبكون حيث لا يجدى البكاء ، بينما الأجنبى قد اغتنى بعد فقر ، وأصبح يسكن منزلا فخما ، ويركب العربات الفاخرة . ويتمتع بالنفوذ والجاه .

انتهى بحمد الله

فهرس

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .



صدر مؤخراً فى سلسلة

ذاكرة الوطن

1- المغنى المصرى .... محمود حمدى البولاقى

2- المعلم يعقوب .... د. أحمد حسين الصّاوى

3- الفن الفرعونى .... محمد صدقى الجباخنجى

4- كتابة على شاهد .... عطية حسن

5- ممر الأفيال...................... يسرى خميس

شـركـة الأمـل للطـبـاعـة والنـشـر
(مـورافـيـتـلـى سـابـقـاً)

كتاب "متعدد النوعية"، يدرس تحولات المجتمع المصرى أوائل القرن العشرين، وأثر التكنولوجيا على القيم الاجتماعية، كما يتعرض للشعر والأدب والفنون والجغرافيا والتاريخ السياسى والوطنى، والعلاقة بين الترام والمجتمع القاهرى، موضحًا كيف ظهر ما يعرف بالأدب الترامى بأشكاله المتعددة، أى أنه فى عصر الترام أصبح هناك نهضة كبرى ملموسة

الغلاف.. د. خالد سرور



www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com